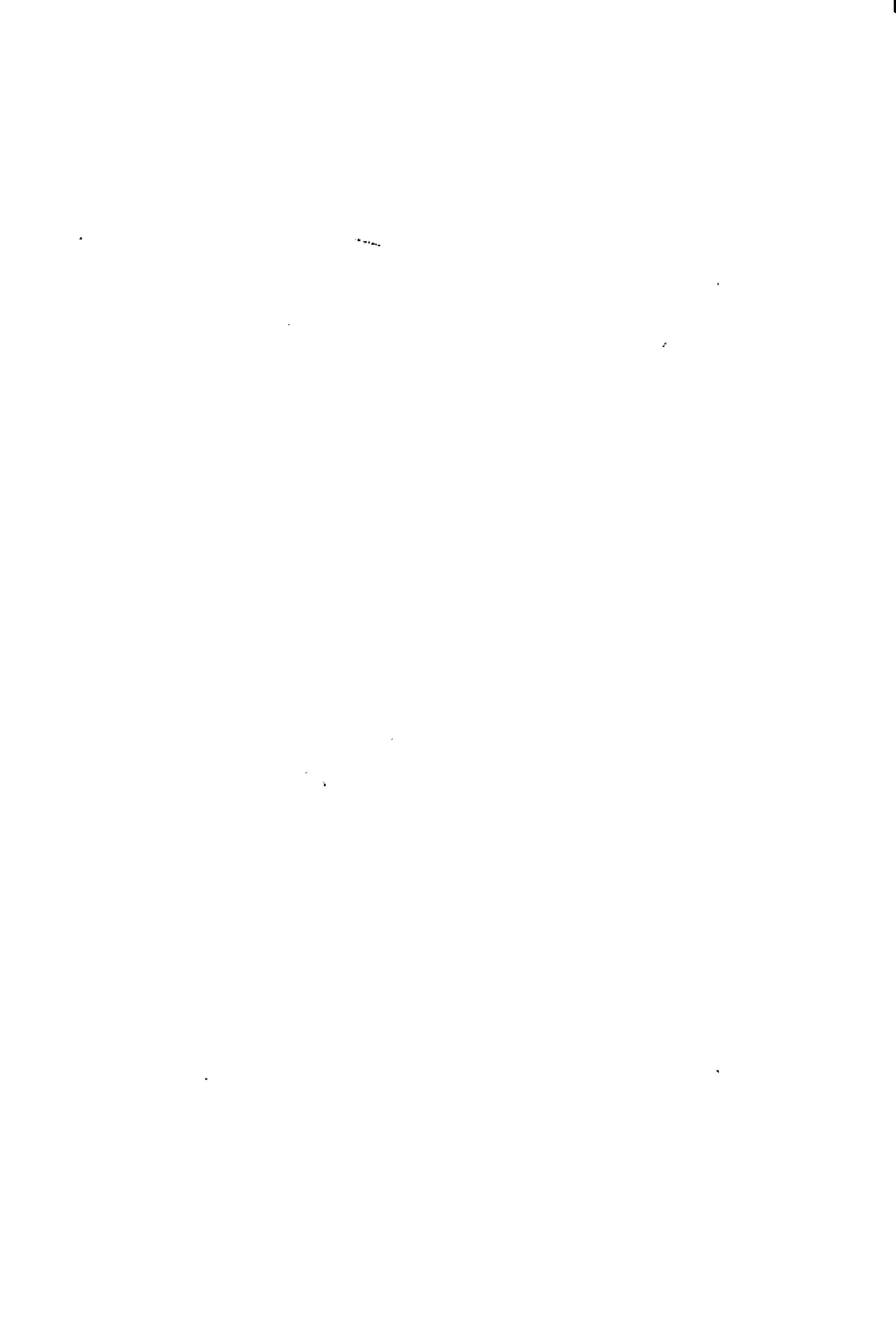
اللهجات وأسلوب دراستها

تأليف

الدكتور أنيس فريحة

دار الجيل
بيروت



اللهجات وأسلوب دراستها

تأليف

الدكتور أنيس فريحة

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

مقدمة

إن قضية «الفصحى والعامية» من أهم المشاكل التي تثير الجدل والمناقشة بين رجال الفكر والقلم، في مختلف البلاد العربية، منذ مدة غير يسيرة.

ذلك لأن الفصحى لا يعرفها إلا المثقفون، ولا يتخاطب بها إلا طوائف محدودة من هؤلاء؟ وأما العامية الدارجة، فهي كثيرة الأنواع، تختلف اختلافاً بيّناً لا من قطر إلى قطر فحسب، بل من مدينة إلى مدينة في القطر الواحد أيضاً. حتى إنها تختلف بعض الاختلاف من حارة إلى حارة، ومن جماعة إلى جماعة، في المدينة الواحدة، في بعض الأحيان.

إذن، فنحن ـ عرب اليوم ـ بين لغة فصحى، يتفاهم بها بعض الناس في جميع البلاد العربية، وبين لغات عامية عديدة، يتفاهم بكل منها جميع الناس، في بعض المناطق المحدودة من بعض البلاد العربية.

ولا حاجة إلى القول بأن هذه الحالة مخالفة لمقتضيات الحياة القومية السليمة، من وجوه عديدة:

فإن كل أمة من الأمم تحتاج إلى لغة «موحَّدة» تزيدها تجاوباً وتماسكاً، فتكون «موحِّدة».

لأن مهمة اللغة ـ في الحياة الاجتماعية المعقدة الحالية ـ لا تنحصر في ضمان التفاهم بين المتخاطبين الذين يعيشون في قرية واحدة أو مدينة واحدة، ولا

بين الذين ينتسبون إلى إقليم واحد، أو قطر واحد، بل هي ضمان التفاهم والتكاتب والتخاطب والتجاوب.. بين جميع أبناء الأمة، على اختلاف مدنهم وأقطارهم.

والتاريخ الحديث مليء بأمثلة بليغة، على الجهود الجبارة التي بذلها ـ ولا يزال يبذلها ـ عدد غير قليل من الأمم والدول في هذا السبيل، توطئة لاستقلالها، أو ضماناً لوحدتها.

فنحن العرب نفتقر اليوم إلى «لغة» يتفاهم بها جميع الناس، في جميع الأقطار العربية.

ولكن، ما السبيل إلى ذلك؟

ماذا يجب أن نعمل للتخلص من البلبلة الحالية، والتنعم بنعمة «لغة موحَّدة وموحِّدة» في جميع الأقطار العربية؟

إذا تأملنا في هذا الأمر بالمنطق المجرد، خطر على بالنا ثلاثة سبل أساسية:

(أ) السعي وراء نشر وتعميم لغة من اللغات الدارجة ـ أي لهجة من اللهجات العامية ـ على جميع البلاد العربية؟

(ب) السعي وراء نشر اللغة الفصحى، بين جميع طبقات الشعب، في كل قطر من الأقطار العربية.

(جـ) السير على طريقة متوسطة بين الأولى والثانية، على أساس تطعيم اللغات الدارجة باللغة الفصحى.

ولا حاجة للبيان أن الطريقة الأولى ـ أي طريقة تعميم لغة من اللغات الدارجة على جميع البلاد العربية ـ غير منطقية وغير عمليّة. فلا بد من التوجه إلى اللغة الفصحى، التي لها جذور عميقة وأسس متينة، وممثلون أقوياء، في

جميع البلاد العربية. ولذلك يحسن بنا أن نحصر البحث والنقاش في الطريقتين الأخيرتين وحدهما:

من المعلوم أن قواعد الفصحى، في حالتها الحاضرة، معقدة كل التعقيد، وصعبة أشد الصعوبة، وبعيدة عن اللهجة الدارجة بعداً كبيراً. فيجدر بنا أن نسأل: هل من الضروري أن نتمسك بجميع تلك القواعد التي وضعها أو دونها اللغويون منذ قرون عديدة؟ هل يتحتم علينا أن نصرف قوانا في سبيل نشر وتعميم جميع تلك القواعد والأساليب؟ ألا يمكن أن نختصر ونبسط اللغة الفصحى، ونشذبها تشذيباً معقولا، يكسبها شيئاً من السهولة، من غير أن يفقدها ميزتها التوحيدية؟ أفلا نستطيع أن نطعم اللغات الدارجة باللغة الفصحى تطعيماً يبعدنا عن حذلقة علماء اللغة ورطانة عوام الناس في وقت واحد، فيوصلنا إلى فصحى متوسطة، معتدلة؟ أفلا يحسن بنا أن نلجأ إلى هذه الطريقة، ولو بصورة مؤقتة، كمرحلة من مراحل السير والتقدم نحو الفصحى التامة؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة ـ إجابة صحيحة ـ تتطلب القيام بأبحاث علمية واسعة النطاق، تتناول اللغة الفصحى واللغات الدارجة في وقت واحد، وتدرس القضايا بجميع تفاصيلها، وتقلب المسائل على جميع وجوهها.

أولا، يجب أن نبحث: ما هي الحدود الفاصلة بين الفصحى وبين العامية؟ ما هي الفروق التي تميّز الأولى عن الثانية من حيث المفردات وكيفية لفظها من ناحية، ومن حيث التراكيب وأسلوب ترتيبها من ناحية أخرى؟

وفي أمر المفردات: هل يجوز لنا أن نعتمد على المعاجم والقواميس المعلومة كل الاعتماد؟ يجب أن نفكر في ذلك ملياً، لأنه من المعلوم أن تلك المعاجم مزدحمة بكثير من الكلمات المهجورة التي لم يعد أحد يشعر بحاجة إلى استعمالها، ومقابل ذلك أنها خالية من عدد غير قليل من الكلمات التي استعملها ولا يزال يستعملها أشهر الأدباء والعلماء في أهم آثارهم العلمية والأدبية، كما أن الكثير

من الكلمات القاموسية تستعمل الآن في معان تختلف عن المعاني التي كان قد دوّنها القدماء كل الاختلاف؛ فلا بد لنا من أن نبحث عن معيار آخر يساعد على تمييز الفصيح عن العامي تمييزاً معقولاً.

وفي أمر القواعد: هل يترتب علينا أن نعتبر آراء العلماء القدماء القول الفصل فيها؟ أفلم يختلف هؤلاء أنفسهم فيما بينهم في أمور التجويز والتفضيل والترجيح؟ أفلا يحق لنا أن نعيد البحث والنظر في تلك الأقوال والآراء، وأن نسلك مسلكاً يختلف عن مسالكهم في أمر التجويز والتفصيل؟ وهل يتحتم علينا أن نسعى وراء نشر وتعميم تلك القواعد بحذافيرها؟ أفلا يمكننا أن نستغني عن البعض منها لنجعلها أقل تعقيداً وأكثر قابلية للانتشار؟ وفي الأخير، ولو قلنا بوجوب التمسك بجميع تلك القواعد، أفلا يجب علينا أن نرتبها ترتيباً معقولاً، لنقدم الأهم على المهّم ونسير على قاعدة التدرج في جهودنا «التفصيحية»؟

ثانياً: يجب علينا أن ندرس اللغات العامية dialects واللهجات المحليّة patois، المنتشرة في مختلف البلاد العربية: ما هي أنواعها؟ وما هي خصائص كل نوع منها من حيث الكلمات والألفاظ والتعابير؟ وما هي حدود انتشار كل واحدة من تلك الكلمات والأساليب والتعابير؟ وما هي أسباب اختلاف هذه اللهجات عن الفصحى من ناحية، وبعضها عن بعض من ناحية أخرى، ألا يوجد بين الكلمات الدارجة في بعض البلاد ما ينطبق على قواعد الفصاحة كل الانطباق؟ ألا يوجد بين اللغات الدارجة صفات واتجاهات عامة ومشتركة؟ ألا تدل هذه الاتجاهات العامة والمشتركة على وجود دوافع عامة وضرورات مشتركة؟ أفلا يجب علينا أن نستكشف هذه الدوافع والحاجات لكي نستطيع ان نعالجها بأساليب أقرب إلى الفصاحة على قدر الإمكان؟

إن كل هذه الأمور والمسائل يجب أن تدرس وتبحث بكل اهتمام.

وفضلاً عن ذلك كلّه يجب علينا أن نتبع التطورات التاريخية أيضاً: من

المعلوم أن اللغة كائن حي، يتطور على الدوام بتطور المجتمع وينمو تبعاً لنمو الأفكار وتنوع الحاجات. فإن لكل كلمة، وكل أسلوب، في كل لغة وفي كل لهجة تاريخاً طويلاً أو قصيراً، ماضياً قريباً أو بعيداً.

إن نظرة فاحصة سريعة إلى ما طرأ من تحولات على اللغة العربية في مختلف البلاد خلال جيل واحد تقريباً ـ منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى مثلا ـ تكفي للتأكد من صحة ما قلناه آنفاً: لقد حدثت تطورات كبيرة في لغة الدواوين، وفي لغة الصحف، وفي لغة التخاطب في مختلف البيئات، في جميع البلاد العربية. فقد دخل في كل منها عدد كبير من الكلمات الجديدة مشتقة من أصول فصيحة، أو مقتبسة من اللغات الأجنبية. معظم هذه الكلمات المقتبسة، كانت فرنسية في بعض البلاد العربية، وانكليزية في بعضها الآخر، وأسبانية في بعضها وإيطالية في بعضها الآخر، وذلك تبعاً للأوضاع السياسية الخاصة التي طرأت على كل واحدة من تلك البلاد. ومن جهة أخرى بدأت حركة معاكسة لذلك لترك تلك الكلمات الأجنبية وإستبدالها بكلمات عربية.

ثم إن ازدياد التواصل والتعامل والتزاور بين المدن والأرياف من جهة، وبين الأقطار المختلفة من جهة أخرى، أدى إلى حدوث تغير محسوس في أوضاع اللهجات المحلية وفي التعابير العامية أيضاً: صارت لهجات بعض العواصم تؤثر تأثيراً كبيراً في اللهجات الفرعية، كما أن لغة عامة الناس أيضاً أخذت تتهذب وتتطور بتأثير انتشار التعليم، وإزدهار الصحافة، وتعريب دواوين الحكومة، وقيام الحياة النيابية.

ولا نغالي إذا قلنا، إنه أخذ يتكون في بيئات المثقفين في جميع البلاد العربية نوع من «لغة التخاطب» اقتبست الشيء الكثير من خصائص الفصحى، وتباعدت عن الكثير من أساليب العامية.

فيحسن بنا أن نتعمق ونتوسع في دروس هذه التطورات وتدوينها، لنستفيد منها ونستنير في تقرير خططنا الاصلاحية.

يتبين من كل ما تقدم، أن الأبحاث اللغوية لا يجوز أن تبقى محصورة بين صحائف الكتب والمعاجم المعلومة، بل يجب أن تخرج إلى ميادين الحياة الاجتماعية، وتدرس وتسجل ما يشاهد وما يلاحظ في تلك الميادين بصورة فعلية.

ويجب علينا أن لا ننسى أن علماء اللغة القدماء تجولوا بين القبائل، ودوّنوا ما سمعوه وما لاحظوه بكل تفصيل واهتمام. فيحسن بنا أن نقتدي بهم في هذا المضمار: فنلاحظ ونسجل ما نسمعه من خصائص الكلام، في كل مدينة وفي كل بيئة، بين الزراع والعمال، بين البنائين والتجار، في المدن والأرياف، بين الرجال والنساء، بين الكهول والأطفال

ولا يجوز لنا أن نتقاعس عن العمل في هذا السبيل بحجة «الاكتفاء باللغة الفصحى»؟ إذ يجب علينا أن نعلم العلم اليقين بأن تغيير الأشياء وتحسينها يتوقف على معرفة خصائصها ومراعاة نواميسها..

إن معهد الدراسات العربية العالية قد أدخل في برامجه أمر دراسة «اللهجات العربية الحالية» (بناء على الملاحظات الآنفة الذكر).

والغاية القصوى منها، هي إعداد الابحاث العلمية اللازمة لاستكشاف أنجع السبل لجعل لغة الضاد «موحّدة موحِّدة» في جميع البلاد العربية.

إن محاضرات الدكتور أنيس فريحة - التي نقدمها اليوم - هي مقدمة لهذه الدراسات.

١٩٥٥/٢/١٩

أبو خلدون
ساطع الحصري

مقدمة

يحسن بنا، ونحن في هذه الغمرة من المشاكل الإجتماعية والسياسية والاقتصادية، أن نعيد النظر في تقييم الأشياء، حتى وإن كانت هذه الأشياء من الحرمات والمقدسات. لأن على الأمة الناشئة التي تبنى للحياة أن تؤسسَ على حقائق، إذ لا يحرر الفكر سوى الحقيقة.

واللغة من الأمور التي ينبغي لنا أن نعيد النظر فيها. فاللغة أساسُ الفكر وطريق الإنسان لإدراك الكون. ولكن تفكيرنا اللغوي لا يخرج عن نطاق التاريخ والتقليد: ونظرتنا إلى اللغة لا تتعدى حدود العاطفة. ورغم أن العرب اليوم يحاولون أن يجابهوا قضاياهم الاجتماعية والسياسية بروح الموضوعية العلمية أراهم في قضايا اللغة يؤثرون العاطفة ويحكمون القلب. ولكن اللغة شأنها شأن كل مؤسسة بشرية أخرى تخضع للكم والكيف، وقد آن للعرب أن ينظروا إلى اللغة نظرتهم إلى أية مؤسسة أخرى تخضع لقوانين العلم.

وإنني أشعر باعتزاز وفخر أن يتيح لي معهد الدراسات العربية العالية فرصة إثارة قضية اللغة ودرسها على صعيد الفكر. ففي هذه المحاضرات القليلة العدد سنعيد النظر في تعريف اللغة وتطوّرها وتجزّئها الى لهجات محكية وأسلوب دراسة هذه اللهجات دراسة تقريرية وصفية (descriptive) وسنخصّ لهجة لبنان بأكبر نصيب من البحث.

وموضوع اللغة الأدبية والمحكية موضوع خطير، ولكنه حساس مثير. ولا

غرو فاللغة لصيقة بالدين والأدب والتاريخ والقومية. ولست أشك في أن ما أقوله خروج على المألوف في تفكيرنا اللغوي. ولكنني موقن أنكم ستتقبلون هذه النظريات بالروح التي يفرضها العلم.

أنيس فريحة

لا يصل امرؤ الى مرتبة الحقيقة ما لم يعامله الف صديق له كأنه زنديق

(الجنيد)

القسم الاول
في اللغة



نظرة في نشأة العربية الفصحى

من النواحي المجهولة في تاريخ اللغة العربية نشأتها الاولى. فاننا لا نعرف عنها شيئاً يقينياً. ولكن لا يكاد القرن السابع ميلادي ينتصف حتى يجد مؤرخ اللغة نفسه امام لغة غنية بمفرداتها، تامة في اعرابها، متينة في تراكيبها، صقيلة في اساليبها التعبيرية، ناضجة في الصور التجريدية مما يدل على مبلغ من الرقي العقلي يتنافى والصورة المشوهة التي صور بها المؤرخون التابعون اعراب البادية.

تنتمي هذه اللغة الفتية بمدونها الى الشعبة الجنوبية من اللغات السامية. وهذه الشعبة الجنوبية تضم لهجات الحبشة واليمن والجزيرة العربية. واذا اعتبرناهذه اللهجات وحدة فان العربية الفصحى، مدار دراستنا، تشكل الفرع الشمالي لهذه اللهجات. وليس لنا ان نستطرد في الكلام عن اوجه الخلاف بين العربية الشمالية (العربية الفصحى) وبين لهجات اليمن، فان ذلك من اختصاص علماء اللغة بالمقابلة. انما نريد أن نؤكد ان العربية الفصحى لغة مغايرة للغة العربية الجنوبية. وقد فطن الى هذا الخلاف قدامى اللغويين، فكان ابو عمرو بن العلاء يقول: «ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا».

تعرف العربية الفصحى بلغة عدنان مقابلة لها بلغة قحطان. وتعرف كذلك بلغة مضر. ويفضل المتأخرون تسميتها بلغة قريش او لغة مكة. وعندنا ان هذه التسمية الاخيرة ليست دقيقة. ذلك لان الدور الذي لعبته قريش او مكة في تكوين هذه اللغة قبل الاسلام ثانوي لا يؤبه به، بدليل ان الشعر الذي

اعتمده الصرفيـون والنحويون عند استنباط قواعد اللغة واحكامها ـ واكثر ما اعتمدوه الشعر الجاهلي ـ كان شعراً ـ نجدياً حجـازيـاً. ولا ينكـر اللغـويـون القدامى ان جل ما اخذوه كان عن الاعراب لا عن اهل المدن، وتحقيقاً عن قيس وتميم واسد. غير ان نسبة الفصحى الى قريش ومكة اسلامية، وذلك لما اكتسبته قريش ومكة من مكانة دينية سياسية سامية. ومهما يكن من امر هذه الاسماء التي عرفت وتعرف به هذه اللغة ـ عدنانية، مضرية، قرشية مكية، نجدية ـ حجازية ـ فان دلالتها واحدة، هي هذه اللغة التي تحدرت الينا والتي نعرفها نحن بالعربية الفصحى مقابلة لها بالعربية المحكية العامية، والتي هي محور هذه الدراسة.

تاريخ هذه اللغة يثير مشاكل لغوية تاريخية عديدة. أين نشأت؟ هل كانت لغة تخاطب، واي قوم كانوا يتخاطبون بها؟ ام كانت لغة الشعر والادب والدين؟ ماذا نعرف عنها قبل ان دوّن بها القرآن الكريم وقبل ان تجمع النتف الباقية من ادب الجاهليين؟ هل يعقل ان تكون وليدة ليلة وضحاها ام وراءها تاريخ مديد غامض؟ اسئلة تصعب الاجابة عنها اجابة علمية دقيقة لندرة المصادر والوثائق السابقة لعصر التدوين. فلا يبقى لدى المؤرخ الا ان يعتمد اللغة كما تحدرت الينا منذ القرن السابع ميلادي.

ولكن لا يصح اعتماد اللغة كما تحدرت الينا مدونة مصدراً لدراسة اللغة في عهودها السابقة. ذلك لان الذين استنبطوا قواعدها، وضبطوا احكامها اعتمدوا الشعر الجاهلي اولا ثم القرآن الكريم مادة لغوية، ومتى كان الشعر ولغة الادب والدين مرآة تعكس لغة الناس في معايشهم ومكاسبهم؟ الشعر صناعة والادب خلق فني. اما لغة الناس فنتيجة تطور طبيعي بعيد عن الصنعة والزخرف. وكذلك لا يصح اعتماد المادة اللغوية التي عثر عليها على الحجارة والانصبة في الحجاز وفي شمالي الجزيرة العربية واطرافها مما يلي بلاد الآراميين. فانها لغة على كثير من الركاكة والرطانة والعجمة، حتى ان استاذنا الالماني، انو لتمان، الذي حل رموز النقوش الثمودية والصفويـة كان يشعر انها ليست

عربية. ولم نشعر نحن، طلبته الذين درسنا هذه النقوش عليه، انها عربية. وان كنت في شك من ذلك فما عليك الا ان تقرأ النقش الذي وجد في النمارة، وهي قصر للروم من اعمال حوران، ويعرف بنقش امرىء القيس احد ملوك الحيرة. فانك ستجد لنفسك انه لا يمكن ان تكون لغة هذه النقوش ذات صلة بلغتنا العربية الفصحى كما نعهدها في الشعر الجاهلي والنثر القرآني. ومن هنا كانت احجية اللغة العربية الفصحى المعربة! لغة، هذا مبلغ رقيها، لا تترك لنا اثراً ادبيا جاهليا ننفذ منه الى اغوار الماضي البعيد؟.

وعليه سنترك الناحية التاريخية جانبا الى ان تتوفر الوثائق الكتابية السابقة لعصر التدوين، والى ان تدرس اللهجات العربية التي اشار اليها اللغويون والتي ابقت المصادر العربية نتفا منها (كما فعل الجاحظ مثلا). وسنحصر همنا بدرس المشكلة اللغوية من نواحيها الاجتماعية الفكرية التربوية. ولكن يحسن بنا قبل الاسترسال في البحث ان نأتي على ذكر بعض ما امتازت به العربية من صفات اهلتها ان تكون لغة علم وفلسفة الى جانب كونها لغة دين وشعر. وهي ليست صفات ملازمة للعربية بل هي مميزات لغوية عامة تتصف بها اكثر اللغات الراقية.

(أ) الذخيرة اللغوية:

الذخيرة اللغوية العربية تفوق بغناها اية لغة سامية اخرى. ولا اسراف في القول ان معجم العربية من اضخم المعاجم. وان المرء ليقف معجباً حائراً امام هذا البحر من الالفاظ، وهذا الغنى في المترادفات والاوصاف، حتى ان بعضهم يرى في هذه الظاهرة موضع فخر ومباهاة. فلكل ساعة من ساعات النهار اسم ولكل ليلة من ليالي القمر اسم، وللسنة ٢٤ اسما وللظلام ٥٢ اسما، وللسحاب ٥٠ اسما، وللمطر ٦٤ وللماء ١٧٠ وللناقة ٢٥٥ وللسيف اسماء لا يحضرني عددها، وللداهية من الاسماء تعد بالمئات حتى قيل ان اسماء الدواهي

من الدواهي، وقد احصى هامر[1] المفردات التي لها علاقة بالجمل فبلغت ٥٧٤٤ لفظة، ولك ان تضيف الى هذه اذا كان لديك من الوقت ما تتلهى به في التقصي ومراجعة المعجم العربي. ونحن نعلم ان هذه المترادفات هي اوصاف ومجازات ولكن رغم هذا كله فاننا نستطيع ان نقول ان العربية غنية جداً بمفرداتها.

ولكن تجدر بنا الاشارة اولا الى ان الجمع تناول لغات عربية كثيرة، وكان الحماس للجمع بالغاً مبلغه فاقحموا هذه الكثرة دون روية في التحقيق. وليس في قولنا هذا ما يقلل من احترامنا لاولئك العلماء الافذاذ. ولكن عمل المعاجم لا يتم بالطريقة الفردية. غير ان من يعرف «لسان العرب» او «التاج» او «القاموس» لا يستطيع الا ان يرفع قبعته اجلالا لجامعيها. ونلاحظ ثانيا ان الكثرة الكثيرة من هذه الكلمات تعكس الحياة الصحراوية البدائية وهذا طبيعي. وكان على هذه اللغة الصحراوية الفقيرة بالمفردات التجريدية الفلسفية والعلمية والفنية والصناعية نسبيا ان تلين لتطور الحياة العربية العقلية. وقد نجحت في هذا نجاحاً جزئياً. ونلاحظ ثالثاً ان هذه الكثرة من المفردات اللصيقة بالحياة البدوية اصبحت على مرّ العصور مماتة. اماتتها الحياة ونبذتها، لان الحياة العربية ابتعدت عن الصحراء وما اليها من بداوة.

(ب) التصعيد:

ونريد بهذا المصطلح قدرة اللغة على التجريد، اي تجريد الصورة المادية ونقلها الى صعيد معنوي، بكلام آخر الصعود باللفظة من معناها الحسي الى المعنوي. وهذه صفة تتصف بها كل لغة راقية ولا تقل العربية عن سائر اللغات قابلية في التصعيد. فمن منا اليوم يقرن لفظة «العقل» بحبل الشعر الذي كانت تربط به رجل الجمل؟ ومن منا يقرن «المجد» بامتلاء بطن

---

(١) De Hammer: Das Kamel extrait des mem. de l'Academie de Vienne. Classe de Phil. et d'histoire t. VII.

الدابة، «والنفس» بعملية التنفس «والروح» بالريح والهواء؟ كل المعاني في طورها الاول كانت حسية ملموسة، وبتقدم الحياة والفكر من جهة، وقلة المفردات من جهة ثانية، وجد الانسان نفسه مضطراً لاستعمال مفردات قديمة لمعان جديدة على طريقة التجوز والتوسع.

(ج) الاشتقاق:

وكان يجب وضع هذه الخاصة في رأس قائمة الصفات المميزة للعربية فانها صفة تغني اللغة كثيراً.

ترد الكلمات في جميع اللغات السامية الى جذور ثلاثية[1] نفترضها افتراضاً، بمعنى اننا لا نعرف كيف كانوا ينطقون هذا الجذر، ولا نعلم علم اليقين كيف استعملوه: اسما ام فعلا ام صفة. وعلى هذا الجذر، الذي يشبه جذع شجرة، تقوم اغصان تتفرع الى فروع، والفروع الى فروع فتنشأ منه شجرة نامية وارفة الظلال. وقد قدر احدهم امكانات الاشتقاق باكثر من ١٢٠ وزنا، اي اننا نستطيع «مبدئيا» ان نشتق من جذر «علم» اكثر من ١٢٠ وزناً لمعان مختلفة.

(د) التوليد:

وهو شبيه بالتصعيد. ويكون على نوعين: صوغ كلمات جديدة لا عهد للعربية بها من قبل كاللامركزية والماهية والحيثية، او اسباغ معنى جديد على كلمة قديمة لم توضع لهذا المعنى، مثل القاطرة والمحرّك والجريدة والهاتف. وقد اظهرت العربية قابلية فائقة للتوليد، ولم يتردد علماء العرب وفلاسفتهم في توليد الالفاظ رغم معارضة بعض الرجعيين القائلين بالاكتفاء «بعصور الاحتجاج» وهذه خاصة تغني اللغة وتساعد على تطورها ونموها لتعبر عن الحياة المتطورة.

---

(١) نحن نعرف اللغات السامية في طورها الثلاثي، وهو الطور الحالي. ولكن هذا لا يعني انها لم تمر سابقا في طور ثنائي، والقائلون بالثنائية كثيرون والادلة متوفرة.

(هـ) التعريب:

وكانوا يقصدون به نطق كلمة اجنبية على نهج العربية واوزانها. وقد أظهرت العربية والعرب رحابة صدر لاقتباس المفردات الدالة على نواحي الحضارة التي اصبحوا ورثتها وبناتها. ولم تستنكف العربية يوماً، ابان سطوتها، على ان تقبل بالمعرب والدخيل. وهو اقرار ضمني بان لا معدى للغات الناشئة عن الاقتباس، ولا يضير اللغة ان يدخل في عداد مفرداتها كلمات اجنبية. فان اللغات التي اصبحت لغات حضارات اخذت واعطت. وها ان العربية اعطت الفارسية والتركية وسائر اللغات الاخرى اكثر مما اخذت عنها.

(و) القياس:

وهذا مبدأ شريف تأخذ به العربية وجل العرب. يقوم هذا المبدأ على فلسفة لغوية اجتماعية: «ما قيس على كلام العرب فهو كلام العرب». وهو على نقيض مبدأ السماع الذي يقيد اخذ اللغة بالرواية والسماع. ومبدأ الاخذ بالقياس ثورة على القائلين بصفاء اللغة وصحتها وبلاغتها في عصر معين او في جيل من الناس معين. ولا مبرر علمي لهذه الدعوة. فان الحس اللغوي والبلاغة في التعبير لا تقتصر على عصر او جيل.

ان هذه الصفات التي تتصف بها العربية: غنى في المفردات، وقدرة على التصعيد والتوليد، وامكانات في الاشتقاق عديدة، ومبدأ القياس والتعريب، دفعت بها الى تَبَوُّء مكانة مرموقة في العصور المتوسطة. ولكن الى جانب هذه العوامل البناءة نلحظ عوامل اخرى تعوق اللغة عن مماشاة الزمن. فها قد مرّ على الحياة العربية ما يقرب من ١٥٠٠ سنة ولغتهم لم يطرأ عليها تغيير ما ولا تبديل ما. عربية اليوم هي عربية امرىء القيس وجرير وناصيف اليازجي. ان الحياة تسير سيرها الحثيث، والعربية اليوم في حالتها الحاضرة تحاول ان تماشي الزمن، ولكن سيرها بطيء. ولن نستطيع ايقاف الزمن. فان سرعة التقدم

عظيمة، ويخشى ان تتسكع العربية في المؤخرة. وهذا هو جوهر المشكلة اللغوية، موضوع هذه الدراسة: زمن سريع التقدم ولغة مكبلة. ما هي هذه المشكلة اللغوية؟

المشكلة اللغوية

مشكلتنا اللغوية مشكلة كل شعب مزدوج اللغة (bilingual) فاننا نفكر ونتكلم ونغني ونتمتم صلواتنا ونناغي اطفالنا ونهمس في آذان من نحبهم ونتفاهم مع من نرغب في التفاهم معهم ونتشاتم مع من يروق لنا ان نتشاتم معهم بلغة محكية سلسة سيالة لا تعوق الفكر ولا تتطلب منا جهداً. ولكن عندما نقف مواقف رسمية ـ كأن يكون احدنا معلما او واعظا او محاميا او محدثا-في الاذاعة او محاضرا في قاعة الدرس ـ علينا ان نتلبس شخصية لغوية ثانية. علينا ان نتكلم لغة غريبة عن لغة الحياة، معربة، معقدة، شديدة الاحكام في التركيب والتعبير. واللغة هي الفكر وطريق الانسان الى ادراك الكون والوجود. اذا فكرنا فاننا نفكر بوساطة اللغة، واذا ادركنا الامور فاننا ندركها بوساطة اللغة، واذا تصورنا الاشياء فاننا نتصورها بوساطة اللغة، واذا انتقلت الينا اختبارات الانسانية فانها تنتقل الينا بوساطة اللغة، اذن اللغة عنصر من عناصر الحياة الانسانية ومع هذا ـ وهنا يقع التناقض ـ فان علينا، في مواقفنا الرسمية ان نتكلم بلغة الاجيال الغابرة، علينا ان نعبر عن احاسيسنا ودواخلنا بلغة وقفت في مجراها عند نقطة معينة في الزمان والمكان عندما احيطت بهالة من التقديس، وعندما سيج حولها بسياج من الاحكام، فوقفت في تطورها عند هذه النقطة في الزمان والمكان. ولكن اللغة لا تقف عند نقطة معينة في الزمان والمكان، لان اللغة مجرى، ونحن نأبى في مواقفنا الرسمية الا ان نعاكس المجرى، اذ بهذه اللغة علينا ان نعبر عن الحياة الحاضرة. في مثل هذه

الحال، عوضا عن ان ينصرف الجهد العقلي الى الفكر، ينصرف الى الشكل الذي يعبر فيه عن الفكر - اي تصبح اللغة مخدومة لا خادمة.

ولا تظنن اننا الشعب الوحيد الذي مر في هذا الطور، طور ازدواج اللغة، فان هناك أمماً حية معاصرة وأمماً من الماضي البعيد مرت في هذا الطور وعانت ما نعانيه: الاغريق، الرومان، الهنود، وغيرهم كثير. ولكن الغلبة في هذا الصراع بين لغة الحياة ولغة الكتاب كانت ابداً للشعب. وستتجلى لك هذه الحقائق في الفصول اللاحقة. ولكن الفارق بيننا وبين هذه الشعوب المزدوجة اللسان ينحصر في امرين: اولا انهم حلوا المشكلة باعترافهم ان لغة الحياة هي اللغة الصحيحة الفصحى. واعترافهم هذا رفع اللهجة المحكية الى مرتبة اللغة الرسمية. ثانيا لم تكن مشاكلهم عويصة معقدة مرتبطة بقضايا الدين والادب كما هي الحال عندنا. نحن نفوقهم في المشاكل عددا وتعقيدا، ويفوقوننا عزماً وارادة.

تنحصر مشاكل اللغة العربية الاساسية في اربعة امور:

(أ) وجود لغتين مختلفتين: عامية وفصحى

(ب) تقييد الفصحى باحكام شديدة

(جـ) الخط العربي الخالي من الحروف المصوتة «الحركات»

(د) عجز العربية عن اللحاق بالعلم والفنون

وقد يضاف اليها مشكلة تدريس العربية بالاساليب التي كانت متبعة في مدارس الكوفة والبصرة دون ان يطرأ عليها اي تعديل جوهري. وقد عالجنا هذه القضية في مقالين موضوع الاول «تدريس العربية من مشاكل اللغة العربية[1]، وموضوع الثاني «البيان والادب من مشاكل التدريس[2]». وقد

(١) نشرته مجلة الابحاث التي تصدرها الجامعة الاميركية في بيروت في الجزء الرابع من السنة الرابعة (١٩٥٠)

(٢) مجلة الابحاث الجزء الثالث من السنة الخامسة (ايلول ١٩٥٢)

حاولنا ان نعزو انخفاض مستوى العربية والنفرة من درسها الى هذه الاساليب التقليدية الجافة البعيدة عن المنطق وعلم النفس. وقد اقترحنا حلا لمشكلة تعليم قواعد اللغة فجاء الحل في شكل كراس عنوانه « تبسيط قواعد العربية وتبويبها على اساس منطقي جديد[1] » وقد وزعناه على جماعة المعلمين والادباء، فأقرنا على رأينا جماعة وخالفنا الرأي جماعة أخرى. وفي دراستنا هذه لن نتعرض لهذه المشكلة الاخيرة - مشكلة تدريس اللغة وقواعدها - بل سنقصر همنا الرئيسيّ على بحث المشكلة الاولى وما يترتب عليها من قضايا فكرية واجتماعية وتربوية.

(أ) وجود لغتين مختلفتين: عامية وفصحى[2]

ظن لغويو الغرب - ويجاريهم في تفكيرهم المعاصرون - ان لغة العرب القدامى كانت العربية الفصحى كما نعهدها في القرآن الكريم والشعر الجاهلي وفي القليل الذي وصلنا من النثر، اي تامة الاعراب وعلى مناهج البلاغة والفصاحة التي نعهدها في المدوّن الادبي. ثم انه عندما خرج العرب من موطنهم الى مواطن الآرامية والفارسية والقبطية فقدوا « ملكة اللسان » كما يقول ابن خلدون وغيره، واخذت مظاهر الركاكة والرطانة والعجمة تتسرب الى لسانهم فنشأت اللهجات. وسنرى فيما يلي ان اثر لغة في لغة اخرى من العوامل التي تعمل على نشوء التغاير والتباين في اللغة، غير ان اسباب نشوء اللهجة تُرَدُّ الى عوامل اخرى اهمها ان اللغة لا تثبت على حال، فهي مجرى، وكلما بعد المجرى ظهر التباين.

نحن نعلم ان الفصحى بعد ان اصبحت لغة الدين واللغة الرسمية للدولة الجديدة أخضعت للقيود، القيود التي يفرضها الصرفيون والنحويون. فهم

(١) طبع في جونية، مطابع المرسلين اللبنانيين (١٩٥٢)

(٢) سنثبت في فصل تال ان العامية لغة قائمة بذاتها تختلف عن الفصحى في نظامها الصوتي والصرفي والنحوي والمعجمي، وهي اختلافات جوهرية تبرر اعتبارها لغة مغايرة للفصحى

يحرصون مخلصين على وضع نظام صرفي نحوي للغة حفاظا عليها من الفساد. والخطأ ان اللغة لا تقيد. والشاهد على صحة دعوانا هو ان العامية، اي لسان العامة، لم يخضع لهذه القوانين والاحكام فسار سيره الطبيعي بينما بقيت الفصحى على اساليبها لم يتغير فيها شيء ما، ان من جهة الصرف او من جهة النحو[1]. فكان من الطبيعي ان تتسع الشقة بين اللغتين حتى أصبحتا في نظر علماء اللغة لغتين مختلفتين متغايرتين.

والنتائج المترتبة على هذه الازدواجية في اللغة بعيدة الاثر، فاننا في حياتنا اليومية نتكلم لغة سلسة سيالة تتميز بفقدان الاعراب وبغنى في الحروف المصوتة التي تضفي على النطق بها مسحة تخالف النطق بالفصحى. وكذلك تتميّز بمرونة في التركيب وبسهولة في التعبير. ولكن في حياتنا الرسمية ـ في التعلم وفي القراءة والكتابة وفي المواقف الرسمية ـ علينا ان نتلبس شخصية لغوية ثانية. ولا نشك في ان ازدواجية اللغة تعوق الفكر ولا سيما عند الاولاد فانهم يلقنون بلغة غير لغتهم ويقرأون في كتب لغتها مغايرة للغتهم. وهذه كتب التدريس عندنا شاهدة على صحة دعوانا، هؤلاء هم اطفالنا يعانون من تعلم الفصحى اكثر مما يعانونه من تعلم لغة اجنبية. في حالة كهذه يركد الفكر عوضا عن ان ينشط، وهذه قضية تربوية على غاية من الخطورة.

(ب) تقييد الفصحى باحكام شديدة

واللغة لا تقيد، غير ان منزلة العربية قضت ان يسيج حولها بسياج من الاحكام والقواعد الشديدة. وشأن العربية في هذا شأن كل لغة اخرى يحرص أهلوها على حفظها من التجزؤ والتفكك. ولكن ما يؤسف له حقاً، من جهة

(١) يظن بعض الناس خطأ ان عربيتنا الفصحى اليوم هي غير الفصحى لعهد الامويين. وهذا وهم فان العربية الفصحى التي نعلمها أبناءنا لا تختلف، وهرا وتركيبا عن عربية الامويين حتى والجاهليين. ولا اعتبار للمفردات فان المفردات تهرم وتموت ويقوم مقامها اخرى. جوهر اللغة التركيب وهذا لم يتبدل اطلاقا.

التطور اللغوي، ان يتمّ ضبط اللغة العربية في احكام مرهقة في زمن بلغ فيه نموّها اشدّه، وفي زمن قريب الى البداوة، واكثر ما تكون اللغة اندفاعاً وحيوية ابان نموها وقربها من البداوة. ونحن لا نشك في انه لو دُوِّنت احكامها في اعصر تالية لما كانت اتصفت بهذه الشدة والقسوة في الاحكام.

وقد تأثر قدامى اللغويين باصول المنطق الاغريقي، وخاصة بفلسفة ارسطو اللغوية. فانه - ارسطو - كان يرى ان للغته تركيباً خاصا، وهذا التركيب هو المنطق السليم. فراح يضع للغته صرفا فلسفيا (Philisophical Grammar) مبنياً على العلة والمعلول، والعامل والمعمول، والتقدير والاضمار والافتراض، وعزا للكلمة اثراً سحرياً في كلمة اخرى. وانت اذا درست فلسفة النحو العربي وجدت انه لا يخرج بجوهره عن فلسفة ارسطو في اللغة. فالتركيب هو المنطق السليم، ولكل علة معلـول، ولكل عامل معمول، ناهيك عن التقدير والاضمار. وحاول لغويو العرب ان يوجدوا ناموسا عاما لجميع المظاهر اللغوية. وحاولوا ان يجدوا منطقا للغة. ولكن ليس للغة منطق، ولا تخضع اللغة لقاعدة عامة، ومن هنا كانت الصعوبة في وضع الاحكام، ومن هنا نشأت القواعد الفرعية والاستثناءات والشواذ مما فتح بابا للاجتهاد والتأويل، واحيانا للخصومة العنيفة كما وقع لمدرستي الكوفة والبصرة[1]. ولا نزال الى يومنا هذا نؤلف كتبا لتيسير النحو وتقريبه الى افهام الناس ولا اظننا قد افلحنا. اعتبر عناوين كتب النحو: احياء النحو، النحو الواضح، الشافي، الكافي، التقـريـب، التسهيل، والتوضيح وحاشية فلان على كتاب فلان. جاء في بيت للفرزدق في قصيدة من قصائده مخالفة نحوية احدثت مشكلة عند اهل اللغة:

وعض زمان يـا بـن مـروان لم يـدع
من المال الا مسحتا او مجلف (عوضـا عـن مجلفـا).

فسأله يوما ابن ابي اسحق: علام رفعت مجلف؟ فقال على ما يسوؤك

(١) احسن مثال على هذه الخصومة كتاب الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين لعبد الرحمن الانباري

وينوؤك. علينا ان نقول وعليكم ان تتأولوا ». وقد جاء في كتاب الشعر والشعراء (ص ٢٧٦) لابن قتيبة: «رفع الفرزدق آخر البيت ضرورة واتعب اهل الاعراب في طلب الحيلة فقالوا واكثروا ولم يأتوا فيه بشيء يرتضى. ومن ذا يخفى عليه من اهل النظر ان كل ما اتوا به احتيال وتمويه». وجاء في نزهة الالباء في طبقات الادباء (ص٣٨٨): «سأل يوما عضد الدولة فناخسرو البويهي الامام ابا علي الفارسي لماذا ينصب المستثنى في نحو قام القوم الا زيدا. فقال بتقدير استثني زيدا. فقال عضد الدولة: لم قدرت استثني؟ هلا قدرت امتنع زيد فرفعت؟ فلم يحر جوابا». افتعجب بعد ان قيل لك ان الفراء مات وفي قلبه شيء من «حتى» وان سيبويه مات وهو يتمنى ان يلم بحد «التعجب» وان الكسائي مات وهو في غاية التبرم من «نعم وبئس» وان الخليل مات وهو في اشد الاستياء من باب «النداء»؟ اما ابن خالويه فقد اتاه رجل يقول: «اريد ان اتعلم من العربية ما اقيم به لساني» فقال له ابن خالويه: «انا اتعلم النحو منذ خمسين سنة فما تعلمت ما اقيم به لساني».

تقييد اللغة باحكام مرهقة يوقف نمو اللغة. وهـذه اللغة التي توقفها عن النمو قد تبقى في بطون الكتب والمعاجم، ولكن لغة الناس تسير سيرها غير عابئة بالاحكام، والشاهد على صحة هذا لغتنا العامية.

(جـ) الخط العربي الخالي من الحروف المصوتة (Vowels)

فان العربية شأنها في الكتابة شأن سائر اللغات السامية التي اقتصرت في الكتابة على الحروف الصامتة مما يجعل من صورة الكلمة هيكلاعظمياً لا حياة له. وهذا يجعل عملية القراءة امرا عسيرا. اذ تفرض هذه الطريقة في الكتابة ـ كتابة الحروف الصامتة فقط ـ على القارىء ان يفهم اولا، كما قال قاسم امين، ثم ان يقرأ قراءة صحيحة ثانيا. وهذا على نقيض الغاية من القراءة. فاننا الشعب الوحيد الذي يجب ان يفهم ليقرأ، بينما جميع شعوب الارض تقرأ فتفهم. كان يقرأ ولد على استاذه نصاً خالياً من الحركات. فاتى على كلمة

« فستكون » فوقف التلميذ امام هذا الهيكل العظمي الميت حائراً لا يدري كيف يتلفظ به « Fstkwn » وبعد محاولات عدة قرأها « فِستكونْ » فكانت نكتة ضحكنا منها كثيرا. ولكن الطالب قرأ واحدة من الامكانيات التي تعد بالمئات. وان كنت في شك من ذلك سل مدرساً في الرياضيات فانه يعطيك القاعدة الرياضية!

وقد ادرك مجمع فؤاد الاول للغة العربية خطورة هذه المشكلة من ناحيتها التربوية والفكرية والاقتصادية فوضع جائزة قدرها ألف جنيه مصري لمن يقدّم افضل اقتراح، او لمن يرسم افضل هجاء من شأنه تسهيل القراءة، والمشكلة لا تزال قائمة.

لن نتعرض في دراستنا هذه لهذه المشكلة الخطيرة. غير اننا عالجناها في مقال نشرته مجلة الابحاث التي تصدرها الجامعة الاميركية في بيروت عنوانه « حروف المجاء العربية، تطورها، ومشاكلها[1] » يحسن بالقارئ مطالعته. وتجدر بنا الاشارة ايضاً الى كتاب قيم يبحث المشكلة لعبد العزيز فهمي باشا وعنوانه « كتابة العربية بالحرف اللاتيني » ففيه توضيح للمشكلة وفيه ردود المؤلف على مهاجميه الكثر، من شأنها ان تنير القارئ الذي يرغب في ان يتعرف الى مشكلة الخط العربي عن كثب.

(د) عجز العربية عن اللحاق بالعلوم والفنون

وذلك لان معظم هذه التعابير الجديدة والمصطلحات المحددة معنى واستعمالا لم تك يوما من المعجم العربي،ولم تك من القضايا العلمية التي عني بها الفكر العربي. لان الفكر العربي لاسباب وقف في التاريخ عند نقطة معينة. فمن الطبيعي ان تجد العربية نفسها الآن عاجزة عن اللحاق بالعلوم والفنون. لغة كل شعب مرآة حياته وبيئته. فان لغة الاسكيمو الفقيرة بمفرداتها تصلح

(١) مجلة الابحاث، العدد الاول من المجلد الخامس ص١-٣٢ وقد طبع منه نسخ عديدة وزعت على من يهمهم الامر

ان تكون اداة حسنة للتعبير عن حياة الاسكيمو وعن محيطه الجاف القاسي، ومن يطلب من لغة الاسكيمو، دون تعديل فيها، ان تنقل حضارة الغرب اليوم بفكره وروحه وعلمه انما يطلب المستحيل. وكل من يعتقد ان العربية اليوم بحالتها الحاضرة، وبالنسبة الى تزمت بعض الناطقين بها، تستطيع بيسر ان تعبر عن مختلف العلوم والفنون واهم.

نعم، ان اللغة العربية غنية بمفرداتها في نواح كثيرة، عظيمة الامكانيات في اشتقاقها وقياسها، وقد استطاعت يوما ان تنقل اليها حضارات الشرق الادنى عن طريق الترجمة والتعريب والتوليد واحياء مفردات قديمة واسباغ المعاني الجديدة عليها. ولكن تقدم العلم والفن والفلسفة في القرنين الاخيرين ـ وفي القرنين الاخيرين كنا نياما ـ كان سريعا فافقنا ولغتنا عاجزة عن التعبير عن هذه الحياة الجديدة.

لن نقف طويلا عند هذه النقطة، ولن نحاول ان نقنع من لا يريد ان يقتنع بان العربية عاجزة في وضعها الحالي عن التعبير عن الحضارة الغربية. فالادلة ميسورة، وها هي جامعاتنا تعلم العلوم والفنون بلغة اجنبية لا لانها ترغب في ذلك كما قد يتوهم بعضهم بل لاقتناع اهل الفكر عندنا ان تعليم الطب والكيمياء والحيوان والنبات و... و...، أمر عسير. وكل من درس علما وكل من عانى التعبير عن هذا العلم بدقة ووضوح يسلم معنا ان الامر لا يحتاج الى جدل.

لا يزيد عمر الحضارة الغربية الحديثة عن ثلاثة قرون. وهذا لا يعني ان جذورها لا تمتد الى عصور بعيدة في الزمن: الى بابل واثينا وروما والاسكندرية وحرّان وبغداد. ولكن الحضارة الحديثة بعلومها ورقيها المادي وتطورها الفلسفي من صنع اوروبا الحديثة. في هذه الفترة من الزمن لم تتح لنا فرصة للاسهام في هذا الخلق الحضاري. ونحن لا نأخذ بقول الغلاة فيما بيننا الذين يدّعون بان حضارة الغرب من الشرق، وان كل علم وفن مردّه الى نشاط

العرب في العصور المتوسطة. لا شك في انهم اشتركوا في هذه العملية، ولكن نشاطهم توقف عند زمن معين. ولا يعنينا الآن تعيين السبب في توقفهم عند هذا الحدّ بقدر ما يعنينا ان نقرّر اننا كأمة عربية في العصر الحديث لم نشترك اشتراكا فعلياً في خلق الحضارة الحديثة لاننا كنا في شبه سبات. ومن لم يسهم في الاختراع والاكتشاف والابتكار فانه سيجد عقبات في التعبير عنها. عليه ان يقتبس ويولد ويُلين لغته لتصبح اداة طيعة للتعبير عن الصور المادية والروحية التي تخلو لغته منها. للاوروبيين معين لغوي لا ينضب هو اللغة الاغريقية واللاتينية. وهذان الشعبان اسهما في خلق الحضارة العالمية. وكانت لغتهما مرنة لينة استطاعت ان تعبر عن هذا الخلق. ويصدف ان لغات اوروبا تشترك والاغريقية واللاتينية في كثير من المميزات اللغوية، الامر الذي يجعل وضع المصطلحات امراً يسيراً. وعندما نشترك مع الامم المتحضرة في الخلق والابتكار والاكتشاف عندئذ نستطيع ان نعبر عن خلقنا بلغتنا.

ولكن لا يجوز ان تبقى العربية على ما هي عليه من هذا العجز في التعبير الى ان يخلق العلماء والفلاسفة والفنانون العرب مصطلحاتهم وتعابيرهم، لان الحياة العصرية تتطلب منا ان نلحق بركب الحضارة. فلا ضير في الاقتباس جملة اذا تعذر وجود مرادف عربي، فان العربية هضمت مفردات اجنبية كثيرة من اللاتينية والاغريقية والآرامية والفارسية والحبشية. وتحسن الاشارة الى نقص في العربية، اعني عدم الدقة في تحديد المعنى، واول ما يتطلبه العلم التحديد والوضوح. ومما لا شك فيه ان العربية غنية في بعض النواحي كأن يكون للشيء الواحد عشرات، لا بل مئات من الاسماء بينما لا تجد لفظة واحدة لاشياء تقع تحت حواسنا. خذ مثلا بسيطا من علم اللغة « Linguistics » مع العلم بان العرب اشتغلوا في هذا الحقل وبرزوا فيه، فانك تجد صعوبة في نقل كتاب يبحث في الفونتيك (علم الصوت) او النظريات الحديثة في بسيكولوجية اللغة. وعلى ذكر «علم الصوت» نقول ان الانكليزية تفرق بين: voice, sound, noise, acoustics, pitch, tone, resonance, intonation, phonology.

وانت اذا اردت ان تتكلم عن هذه بدقة فانك لا تجد سوى لفظة «صوت». وكذلك الافرنسي يفرق علميا بين: Langue, language, parole, parler فكيف تفرق انت بينها وليس عندك سوى لغة او لسان؟

ولكننا لا نقول ان هذا العجز صفة ملازمة للغة. فانه اذا نشطت العقول وكان عندنا الجرأة فان العربية تستطيع ان تلحق بالعلوم والفنون. وجل ما نريد قوله هو ان هذا العجز عن اللحاق بالعلوم والفنون مشكلة من مشاكل العربية الاساسية.

هذه هي مشاكل العربية الاساسية وكل مشكلة تحتاج الى دراسة عميقة والى حلول عملية. ولكننا في هذا الكتاب لن نتصدى الا الى المشكلة الاولى: ازدواجية اللغة لانها، في نظرنا اخطرها. ونحن نعلم مسبقا ان الموضوع حساس وقد يعرضنا للنقد والتسفيه.

ولكن ايماننا بان المشكلة اللغوية على جانب من الخطورة وبانها تتطلب حلاً سريعاً لانها قضية تتعلق بالفكر والحضارة. ويقيننا بان الفكر لن يحل من عقاله ليساير الحضارة ما لم يتحرر اولا من قيود اللغة وشائكاتها، جميع هذه قد دفعتنا لمعالجة الموضوع. وفي سبيل الفكر نحن على استعداد لتقبل كل نقد وتسفيه.

ما هي اللغة؟

لن نجيب عن هذا السؤال، الذي يبدو بسيطاً، بتعريف جامع مانع كأن نقول: اللغة مجموعة اصوات للتعبير عن الفكر او اداة للتفاهم او وسيلة لنقل المعاني، لان صوغ تعريف علمي شامل للغة ليس بالامر اليسير كما قد يتبادر الى الذهن. غير اننا نعد القارىء الذي اعتاد الاحاطة بالامور عن طريق التعاريف القصيرة اننا سنحاول في آخر هذا الفصل تعريف اللغة على الطريقة التي الفها.

وقد يبدو ترددنا في تعريف اللغة غريبا، لان اللغة من الامور الطبيعية المألوفة التي يمارسها جميع البشر على اختلاف اجناسهم عفويا. فانها لا تتطلب جهدا ولا تفكيرا. يستعملها الولد بيسر، وهي عنده عملية بسيطة كالمشي والاكل والشرب والنوم وغسل اليدين قبل تناول الطعام. وها نحن نتكلم في كل حالة من حالات الحياة وفي كل ساعة من ساعات الليل والنهار سواء كنا نائمين او حالمين او هاذين. فلماذا نقول ان تعريفها امر شاق.

خذ هذا التعريف المكرر: «اللغة مجموعة اصوات للتعبير عن الفكر» وحاول تطبيقه على واقع اللغة ثم سل نفسك: هل صحيح ان اللغة مجموعة اصوات للتعبير عن الفكر، هل اللغة مجموعة اصوات؟ هل فكرة «البيت» قائمة في الاصوات التي تتألف منها اللفظة؟ بكلام آخر ما علاقة اصوات حروف الكلمة بمعناها؟ اليس المعنى قائما في الاختبار لا في الصوت؟ عندما

نسمع لفظة «بيت» اليس الاختبار في حنايا العقل الذي يترجم الصوت الى معنى؟ ولك ان تسأل هل كل صوت هو «لغوي»؟ كلا فان هناك اصواتاً عديدة لا تدخل في نطاق الاصوات اللغوية كالاصوات الطبيعية والحيوانية وكبعض الاصوات التي نخرجها من بين الاسنان، او من الخيشوم، او من اقصى الحلق، او كالاصوات التي نحدثها بالتواءات مختلفة للسان، جميع هذه الاصوات لا تدخل في نظام الاصوات اللغوية. اذن علينا ان نحدد كلمة الصوت اللغوي. وعلماء اللغة، رغبة منهم في الدقة العلمية، يطلقون على اصوات اللغة مصطلحا علميا: فونيم (وجمعها فونيمات Phonème) اي الوحدة الصوتية للغة. ويعنون بالفونيمات مجموعة الوحدات الصوتية التي تشكل النظام الصوتي للغة. وتتمثل الفونيمات عادة بحروف الهجاء، ولكن حذار من ان نعتقد ان عدد الفونيمات في اللغة ينبغي ان يطابق عدد حروف الهجاء في تلك اللغة. كلا، فقد يكون للغة ما ٢٦ او ٢٧ او ٢٨ حرفا هجائيا ولكننا اذا احصينا عدد فونيمات هذه اللغة لوجدنا انها تربو على عدد حروف الهجاء. ونمثل لك على هذا بفونيم «ث» في اللغة الانكليزية فانه عنصر من عناصر اللغة كما في thin. ولكن هذا الفونيم لا رمز له (اي لا حرف له) بل يرمزون اليه بحرفي th. وقل هذا في فونيم «ذ» فانه عنصر من عناصر الانكليزية كما في لفظة mother ولكن فونيم «ذ» لا رمز له (لا حرف له) بل يرمزون اليه بحروف اخرى.

وفضلا عن هذا فان علماء الفونتيك يقولون لنا ان للفونيم الواحد اكثر من لفظ واحد. قد يكون له ثلاثة الفاظ او اربعة. فان فونيم p في كلمة speak هو غيره في اللفظ في كلمة park. وقل هذا في فونيم t فانه في sting غيره في teem. قد لا تستطيع اذني او اذنك ان تميز بين لفظ وآخر للفونيم الواحد ولكن الالة المسجلة والفونتيكي المجرب يستطيعان ذلك.

وما قولك في هذه الفونيمات: a e i o؟ الا تختلف لفظا تبعا لوقوعها في كلمات مختلفة؟ هل الفونيم a في father وفي fat وفي female واحد في اللفظ؟

ثم اعتبر الشق الثاني من التعريف: « اللغة اداة للتعبير عن الفكر ». يقول لنا بعض البسيكولوجيين ان اللغة هي الفكر ذاته، او هي اساس الفكر وطريق الانسان للفكر. ويؤكد بعضهم اننا لا نستطيع التفكير بدون كلمات. فاذا قبلنا هذا التحديد - بانها اداة للفكر - نكون قد فصلنا الفكر عن اداة التعبير عن الفكر، وهذا مما لا يقبل به البعض. وخل عنك هذه القضية الفلسفية البسيكولوجية ولنعد الى صعيد ادنى ونسأل: اذا قبلنا هذا التحديد الا نكون قد عظمنا ملايين الناس الذين يتكلمون ولكنهم لا يعبرون عن الفكر؟ الا نكون قد حقرنا الفكر باعتبارنا كل ثرثرة تعبيراً عن الفكر؟ عندما يغضب احدنا، او عندما تنهال من فيه الشتائم والمسبات، او عندما يحيي بعضنا بعضا، او عندما نتكلم لانفسنا ونحن سائرون في الطريق او مستلقون على فراش، هل في هذه المواقف، والشبيهة بها، تعبير عن الفكر؟ ثم اننا احيانا نرغب في التعمية والتمويه والاخفاء واداتنا في ذلك اللغة التي يقولون لنا انها لنقل الفكر او للتعبير عنه!

لا نكران ان اللغة اداة للتعبير عن الفكر احيانا، فالمحاضر يعبر عن افكاره بوساطة اللغة، والمعلم في مدرسته، والعالم في مختبره، والنائب في برلمانه، والصحافي في مكتبه، جميع هؤلاء يعبرون عن الفكر باللغة. ولكن حصر اللغة بانها اداة للتعبير عن الفكر امر بعيد عن الواقع.

وكذلك قد تكون اللغة تعبيراً عن شعور وعاطفة. وقد يكون منشؤها العاطفة والشعور لا الفكر. اللغة للغناء، للشعر، للاقاصيص، للاساطير، للخرافات، فهي بهجة ومتعة، وهي متنفس عن حزن والم. واني اعجب من الرجل القاسي الذي يحكم على المرأة بانها ثرثارة. المرأة مخلوق طبيعي وتشعر ان هذه الهبة العظيمة - اللغة - للثرثرة وللكلام في غير المواقف الرسمية. اللغة عندها شيء مستحب، والثرثرة بهجة ومتعة. وفي هذا كثير من الصحة.

الواقع ان اللغة من مجموعة اصوات، واكثر من ان تكون اداة للفكر او تعبيراً عن عاطفة. اللغة جزء من كياننا البسيكولوجي الروحي، وهي عملية فيزيائية اجتماعية بسيكولوجية على غاية من التعقيد، وتتناول اربعة امور اساسية لتمام العملية المعقدة:

(أ) متكلم

(ب) مخاطب

(جـ) اشياء او فكر يتكلم عنها

(د) كلمات او مفردات (او اشارات ملامحية او يدوية) وهي مجموعة فونيات لها في الذهن صور معينة، اي معان.

ولإيضاح هذه العملية المعقدة نأخذ مثلا بسيطا لا يتبادر الى اذهاننا انه على شيء من التعقيد. تصور رجلا يمشي في حقل مع ولده الصغير. يرى الولد شجرة تفاح عليها ثمر شهي فيقول لوالده: «اقطف لي يا بابا تفاحة». وقد ينزل الوالد عند طلب ولده، فيتناول تفاحة، وقد لا ينزل عند طلبه فيقول: «لا التفاح ليس لنا، للتفاح اصحاب». فلنحلل هذه العملية الفيزيائية الاجتماعية البسيكولوجية.

تبدأ العملية بالصور المرئية، بعالم الاشياء المحيط بنا، وهو العامل المؤثر، فيشتهي الولد التفاحة وتستحيل الصورة الذهنية الى صورة كلامية تعبيرية: «اقطف لي يا بابا تفاحة». كيف تحولت الصورة الذهنية الى صورة صوتية؟ اين كانت هذه الكلمات في دماغ الولد؟ ما العلاقة بين العامل المؤثر وبين النطق؟ ماذا جرى؟ وكيف تم؟ ثم ان هذه الاصوات التي فاه بها الولد انتقلت إلى اذن الاب بوساطة تموجات في الهواء اولا ثم الى دماغه ثانيا. كيف؟ ماذا كان رد الفعل؟ كيف فهم المخاطَب المخاطِب؟ ماذا دار في دماغ

الوالد عند سماع الفونيات، وهل المعنى في الصوت ام ان المعنى قائم في الاختبار؟ اي ما العلاقة بين الاصوات والمعنى؟ وكيف توصل الى حكم اولا في العقل ثم استحال الحكم الى اصوات تعبيرية فقال له «نعم» او «لا». «التفاح ليس لنا»؟.

هنا يتدخل البسيكولوجي ويقول: درس اللغة ليس من اختصاص علماء اللغة بل فرع من فروع علم البسيكولوجيا. اللغة «تصرف رمزي Symbolic behaviour ولا تفسر الا على اساس المؤثر ورد الفعل. هاتان العبارتان: «اقطف لي تفاحة» و«التفاح ليس لنا» رد فعل بسيكولوجي، ولا معنى لهاتين العبارتين الا اذا فهمنا الظروف المحيطة بالوضع الذي نطق بهما. ثم ان البسيكولوجيين انفسهم، اذا سلمنا ان درس اللغة من اختصاصهم، يختلفون كثيرا فيما بينهم في تفسير هذه الظواهر. فقد كان بعضهم الى زمن قصير يعتقد بالتعليل النفسي او الروحي، اي ان هناك قوة روحية او عقلية او نفسية غير مادية تحرك الانسان. ولكن جلهم الان يعللون هذه الظواهر البسيكولوجية على انها عمليات فيزيائية ميكانيكية: مؤثر ورد فعل وتلاؤم وتصرف رمزي.

يرى القارئ مما تقدم ان اللغة ليست ظاهرة بسيطة بل يتطلب فهمها فهما صحيحا اثارة اسئلة خطيرة وعلى كثير من التعقيد والغموض. اما نحن فيهمنا من الامر تقرير الواقع: اللغة ظاهرة اجتماعية بسيكولوجية قبل ان تكون كلمات واصواتا وصرفا ونحوا. وهذا امر هام جدا بالنسبة الينا نحن العرب، فاللغة عندنا اداة مركبة من اصوات فكلمات فتراكيب، بينما هي في الواقع الفكر ذاته (عند بعضهم) او طريق الفكر لادراك الوجود (عند البعض الاخر) ولا كيان للغة بمعزل عن المجتمع. فان سويت ودّي صوصير السويسري يقولان ان لا كيان للغة الا في ذهن الافراد.

بعد هذا الاسهاب للقارئ ان يطالبنا بتعريف اللغة فنقول:

اللغة ظاهرة بسيكولوجية اجتماعية ثقافية مكتسبة[1]، لا صفة بيولوجية[2] ملازمة للفرد، تتألف من مجموعة رموز صوتية لغوية اكتسبت عن طريق الاختبار معاني مقررة في الذهن. وبهذا النظام الرمزي الصوتي تستطيع جماعة ما ان تتفاهم وتتفاعل. وباللغة فقط صار الانسان انسانا، وباللغة فقط تطورت الحضارة وتقدم العمران وبلغ العقل الانساني ذروته. فدرس اللغة درسا علميا فلسفيا درس في الانسان وفكره.

---

(١) اذا فصل طفل عن المجتمع فانه لن يتكلم بل ينطق باصوات غير لغوية كسائر الحيوانات. وقد يكون لها معان. وكذلك اذا نشأ طفل في محيط غير محيطه فانه يكتسب لغة القوم الذين يعايشهم

(٢) ان اعضاء النطق كالحلق واللسان والرئتين والحنجرة، وغيرها كثير، ليست للنطق اولا اي ان وظيفتها الاولى هي غير النطق.

كيف نشأت اللغة؟

لا نعلم على وجه التحديد. اصل اللغة وثيق الاتصال بأصل الانسان ذاته وبتطور جسمه وعقله. اذن قضية أصل اللغة ليست قضية لغوية بحتة، ولا تدخل في نطاق علم اللغة Linguistics بل في نطاق البسيكولوجيا والانثروبولوجيا والفلسفة.

ان معرفتنا بتاريخ الانسان قبل التاريخ المدون قد ازدادت في القرن الاخير. ولكن رغم تقدم معارفنا في هذا الحقل فان أصل الانسان ونشأته من حيوان ابكم الى حيوان ناطق، من حيوان لا يعقل الى حيوان عاقل، لا يزال مكتنفا بحجب من الاسرار. ولكي نهتك هذه الحجب علينا ان نرجع الى عهود سحيقة في القدم لا نعلم عنها شيئاً علماً يقينياً، والعلم لا يعترف بشيء اسمه حدس أو خيال، ولا يأخذ بشيء اسمه غيبيات، الا اذا كانت افتراضات قيد البرهان.

ولكن أصل الانسان ونشأة لغته أمر يثير الخيال ويستأنف الى العقل. ونعتقد ان أصل اللغة من أقدم المشاكل الفكرية التي جابهت عقل الانسان. فان كاتب قصة الخليقة عزاها الى الله. الله علم آدم الكلام. وقد انقسم العرب الى قمسين ازاء هذه المشكلة[1]. فقالت جماعة ان اللغة توفيقية، أي ان الله

(١) ترى نموذجا من هذا البحث في ابن جني (ابو الفتح عثمان) في كتابه الخصايص باب القول على اصل اللغة الهام هي ام اصطلاح. ص ٣٩ (مطبعة الهلال بالفجاله ١٣٢١) وعنه اخذ =

علمها الانسان، وقالت جماعة انها اصطلاحية توافقية. وكان هم علماء اللغة، منذ مطلع القرن التاسع عشر الى زمن قريب منا، ان يتوصلوا الى حل هذه المشكلة. ولكنهم كانوا يدورون في حلقة مفرغة. وكثر القول فيها الى حد جعل الجمعية اللغوية الفرنسية La Societe de Linguistique تمنع بقانون القاء محاضرات في هذا الموضوع، لان هذه النظريات - وسنذكر لك نتفاً منها - لا تفسر أصل اللغة. وقد كانت الجمعية اللغوية هذه على شيء من الحق في منع الموضوع، لأنه، كما ذكرنا آنفاً، لا يدخل في نطاق علم اللغة بل هو أقرب الى الحدس والخيال. يجب أن يبحث عن أصل اللغة في نشوء التصرف او السلوك الرمزي Symbolic behaviour.

ولكن من قبيل العلم بالشيء لا الاخذ به يحسن بنا أن نأتي على ذكر بعض هذه النظريات، ان لم يكن لغرض سوى ان ندلل بان اللغة تنشأ من اسفل وترتقي الى أعلى ولا تهبط من عَلٍ الى اسفل. منها:

(أ) نظرية البو - وو Bow - waw[1]

ومفادها ان أصل اللغة محاكاة أصوات طبيعية: وقد اشار العرب الى هذه النظرية بطريقة غير مباشرة عندما تكلموا في «حكاية صوت»[2] وقد أدى الى

= عبد الرحمن جلال الدين السيوطي في المزهر في علوم اللغة وانواعها ص ١٧ - ٢٠ دار احياء الكتب العربية بالقاهرة.

(١) الكتب والمقالات التي تبحث اصل اللغة عديدة جداً نكتفي بذكر مقالين جامعين يلخصان للقارئ الذي لا يهمه التبسط في الموضوع اهم ما قدم من نظريات. المقال الاول تجده في،

W.B. Pillsbury and C.L. Meader: The Psychology of Language, P. 112 – 128.

New York and London 1928.

والمقال الثاني في:

Otto Jesperson: Language,

its Nature Development and Origin, P. 412 – 442

Allen and Unwin, London 1922.

(٢) ويشير اليها ابن جني في كتابه الخصائص المذكور آنفا في فصل يعنونه «احساس الالفاظ اشباه المعاني». ص ٥٤٤. وعنه نقل السيوطي في كتابه المزهر المذكور آنفاً ص ٤٨.

وضع هذه النظرية ورود كلمات عديدة، في كل لغة، لفظها يدل على معناها مثل الرنين والغنة والزقزقة والقهقهة والحفيف والخرير والخشخشة والطقطقة. واننا نرى شيئاً من صدق هذه النظرية متمثلاً في لفظة Cuckoo وهي اسم طائر سمي بالصوت الذي يحدثه. وقل هذا في لفظة « مو » فانها تعني في المصرية القديمة وفي اللغة الصينية هرة. وظاهر ان التوافق في التسمية عند المصريين والصينيين يرجع الى ان الهرة سميت بالصوت الذي تحدثه.

ولكن الكلمات التي يمكن ان تفسر على مبدأ نظرية البو ـ وو قليلة جداً. وفضلا عن هذا فان النظرية تعجز عن ان تفسر لنا كيف استغل مبدأ « حكاية الصوت » في آلاف الكلمات التي لا نرى الآن أية علاقة بين معناها وصوتها. ما العلاقة بين لفظة ابريق ومعناها؟ وما العلاقة بين لفظة المنضدة ومعناها؟ ما العلاقة بين لفظ الكتاب ومعناه؟ ليس هناك من علاقة ظاهرة انما العلاقة بسيكولوجية، أي من نوع قرن الأصوات بصور قائمة في العقل.

(ب) نظرية الاصوات التعجبية العاطفية Interjections

وتعرف بنظرية Pooh – pooh. ومفادها ان الكلمات الاولى التي نطق بها الانسان كانت أصواتاً تعجبية عاطفية صادرة عن دهشة أو فرح أو وجع او حزن او استغراب او تقزز او تأفف. ومثال هذا لفظة ـ تأفف ـ التي استعملناها نحن. عندما يتأفف الالماني يقول !Pfui وعندما نتأفف نحن نقول ـ اف أو اوف ـ وعندما نتحسر او نتهلف نقول: « وي » وهي لفظة ترد في جميع اللغات السامية، ويتبعها عادة حرف الجر « ل » فيقال « و ي ل » وعلى مر الزمن امتزجت الكلمتان وصارتا كلمة واحدة « ويل » كما امتزج اسم الموصول « ما » مع حرف الجر « ل » فأصبح « مال ». وفي الانكليزية القديمة لفظة تدل على التحسر والتلهف شبيهة بلفظة « ويل » وهي Wa-la.

ان ما قلناه عن النظرية الاولى ينطبق على النظرية هذه. لأنه اذا استطاعت نظرية كهذه ان تفسر بضعة الفاظ فانها تعجز عن تفسير الوف من الالفاظ

التي لا نرى كيف يمكن ان تكون في أساسها تعجبية عاطفية أو مشتقة من عناصر تعجبية عاطفية. ما علاقة لفظ الحب والبغض والولاء والفيل والحصان والانسان بالأصوات التعجبية العاطفية؟ ليس هناك من علاقة ظاهرة.

(جـ) نظرية محاكاة الاصوات معانيها Ding – dong

وواضعها ماكس ميلر اللغوي الشهير(١). ومفادها ان جرس الكلمة يدل على معناها. وهي لا تختلف عن نظرية البو ـ بو. وقد اشار اليها العرب أيضاً بطريقة غير مباشرة عندما اشاروا الى ان للحروف معاني(٢). فحرف الحاء يدل على الانبساط والسعة والراحة، وحرف الغين يدل على الظلمة والانطباق والخفاء والحزن كما في غم وغيم وغبن وغبطة. ولكن كيف نفسر لفظة غني وغنج وغلام؟

مما لا شك فيه انك اذا نظرت في كلمات عديدة يشترك فيها فونيم واحد تجد ان معانيها متقاربة. ولكن ان نرد معاني الوف الالفاظ الى ٣٠ أو ٣٥ فونيا او وحدات صوتية فاننا لا نفسر أصل اللغة بل نزيد في غموض المشكلة. اذ لك أن تسأل كيف تطورت هذه المعاني القليلة التي تمثلها الفونيات القليلة التي تشكل النظام الصوتي للغة الى معان لا حصر لها؟ وهل المفردات العربية المدونة في «لسان العرب» مشتقة من ٢٨ فونيا؟ هذه النظرة لا تفسر أصل اللغة، بل تزيدها تعقيداً.

(د) نظرية الاستجابة الصوتية للحركات العضلية

وتعرف بنظرية Yô – hê – hô وهي المقاطع الطبيعية التي يتفوه بها الانسان عندما يستعمل أعضاء جسمه في العمل اليدوي. فكأن هذه الأصوات

---

(١) F. Max Mueller: Lectures on the Science of Language. London 1864

(٢) والافضل ان ينظر في المقطع، لا في الحرف، كما فعل الاب ا.س. مرمرجي في كتابيه: معجميات عربية ـ سامية ـ جونية ١٩٥٠ ـ والثنائية.

التي يخرجها عفوياً عند القيام بعمل عضلي عنيف تخفف شيئاً من خدة العمل. ومن هذا القبيل أغنية المجذفين على نهر الفولغا. وانت اذا وقفت الى جانب عامل يقطع صخراً أو شجرة، او اذا راقبت حداداً أو مجذفاً أو رجلا يرفع حملا فانك تسمع أصواتاً ترافق حركاته. وفي الحداء وفي الرقص الايقاعي تسمع أصواتاً تتلاءم والحركات الجسمية.

ولكن هذه النظرية أيضاً تفسر جزءاً يسيراً من اللغة، ويبقى السر العميق: كيف نشأت اللغة من هذه الاصوات العفوية التعبيرية التي ترافق حركات الجسم؟ ما علاقة لفظ الاب والام والحنان والجمل والجمال وهذه الاصوات التي هي استجابة للحركات الجسمية؟ ليس هنالك من علاقة ظاهرة.

(هـ) نظرية الاشارات الصوتية

وللسر ريشارد باجت Paget[1] نظرية جديدة لم تلاق قبولا. ومفادها ان الكلمات هي اشارات صوتية Verbal gestures. يقول باجت ان الانسان القديم كان يتفاهم بالاشارة - الاشارة باليد والاشارة بتقلص عضلات الوجه - ولكن عندما صار يستخدم يديه لأمور اخرى اصبح يشير الى الاشياء باصوات. ومما ساعد الانسان على ترك الاشارة اليدوية والملامحية والاستعاضة عنها باشارة صوتية هو ظلام الكهف ليلا. ففي النهار يرى الانسان صاحبه ويستطيع ان يقوم باشارات يدوية ترى، ولكن كيف يتم التفاهم في الظلام؟ عند ذلك بدأ الانسان بالتعبير عن الاشياء باصوات، وهذه الاصوات في الفم تحاكي الاشياء المعبر عنها. وتعرف نظريته بنظرية ta – ta اي انك عوضا عن ان تشير الى شيء بيدك تشير اليه بلسانك فتقول ta – ta.

ويستطيع القارىء ان يرى لنفسه وجه التكلف في هذه النظرية التي لا تفسر اصل اللغة، ولكن حماس صاحبها دفعه لكتابة كتاب ضخم في الموضوع.

---

(١) Sir Richard Paget: Human Speech. London and New York, 1930.

(و) معرفة اصل اللغة عن طريق دراسة اللغات القديمة

عندما حلت رموز اللغات القديمة ـ السومرية، البابلية، المصرية، الحثية، الكريتية ـ وعندما تعرف علماء اللغة الى اللغات المتأخرة كلغات الهنود الحمر والزنوج واهل اوستراليا الاصليين، نقول، عند الكشف عن هذه اللغات ظنوا وهماً ان في دراسة هذه اللغات ما قد يجلو الغموض الذي يكتنف اصل اللغة. وسبب الوهم ظنهم ان هذه اللغات بدائية وقديمة، اذن قد يكون فيها عناصر «طبق الاصل» للغة الانسان القديمة. ولكن الواقع ان هذه اللغات ليست بدائية ولا هي قديمة، بل حديثة نسبة الى عمر اللغة. فقد اثبتت الدراسات الفيلولوجية لهذه اللغات ان وراء كل لغة منها تاريخاً مديداً لا يعلم له بدء، وانها ليست بدائية في صرفها ونحوها واساليبها، بل هي نتيجة تطور وتغيير مستمرين. وقد وصلت الينا هذه اللغات تامة التركيب وليس فيها ما يدل على بدائية. اللغة قديمة جداً. يظن ان الانسان بدأ يتكلم منذ مئة الف سنة، وهذه اللغات، وان اعتبرناها وهماً قديمة او بدائية، فان وراءها عشرات الالوف من السنين كانت فيه عرضة للتغيير والتطور.

وقد وقع علماء اللغة في القرن التاسع عشر في وهم آخر فاضح، وهو ان اللغات التي اعتبروها قديمة او بدائية بسيطة في تركيبها، اذن هي اقرب الى الاصل على اعتبار البساطة من مميزات اللغات القديمة البدائية.

كان استاذنا ادورد سابير Sapir، احد اعلام علم اللغة، واحد الثقات في لغات الهنود الحمر، يقص علينا الكثير من الطرائف في لغات هنود اميركا. كان يؤكد لنا هذه النقطة: كلما رجعنا الى الوراء في تاريخ اللغات وجدنا مظاهر تعقيد وعدم منطق، وكلما تقدمنا نحو الاعصر الاخيرة من تاريخ اللغة وجدنا شبه اتجاه نحو التبسيط والقياس والمنطق. يقول ان في لغة قبيلة يانا (Yana) في كاليفورنيا نوعين من المفردات ونوعين من التركيب: واحد للنساء وآخر للرجال. أي ان لفظة بيت تكون كلمة مغايرة في لغة النساء للفظة بيت

في لغة الرجال. وهناك لغات لا تعرف لفظا واحدا عاما لفكرة عامة، ولا تستطيع التجريد. فاننا نقول اكل خبزاً واكل لحما واكل عنبا، اما عندهم فلكل نوع من الاكل لفظ خاص. فعل اكل في «اكل عنبا» هو غيره في «اكل موزا». ولا يقف الامر عند هذه الغرائب بل نجد ان الفعل الماضي يكون غيره في المضارع وليس كما هي الحال عندنا حيث نقول أكل يأكل.

ان بقايا هذا التعقيد وبقايا عدم المنطق لا تزال ظاهرة في لغاتنا الحية. خذ التأنيث مثلا، فان الانسان القديم كان يؤنث المفردات بلفظ مغاير للفظ المذكر. ففي العربية نقول:

رجل: امرأة
خروف: نعجة
تيس: عنزة
حصان: فرس
اسد: لبؤة

ولكن بعد زمن بدأ التأنيث الصرفي يجد مدخلا الى اللغة وأصبحنا نقول:

لطيف: لطيفة
كبير: كبيرة
مؤمن: مؤمنة

واليك مثلاً آخر على انعدام المنطق في اللغة: تذكير العدد مع المؤنث وتأنيثه مع المذكر. نقول ثلاث نساء وثلاثة رجال. اين البساطة واين المنطق؟ ولكن ماذا حدث على مر الايام؟ نقول اليوم «تلات نسوان وتلات رجال».

نعود الى نظرية معرفة اصل اللغة عن طريق دراسة اللغات القديمة البدائية فنقول ان دراسة هذه اللغات أثبتت اولا انها ليست قديمة جدا كما توهمنا، وليست بدائية كما احببناها ان تكون، فلم تسعفنا في الوصول الى معرفة الاصل بل اننا لا نزال في الظلام.

(ز) دراسة لغة الاطفال

واخيرا، بفضل تقدم العلوم التربوية والبسيكولوجية، اتجه هم بعض الباحثين في نشأة اللغة الى دراسة لغة الطفل من مراقبة نمو اعضاء النطق واخراج الاصوات وكيف تكتسب الاصوات معاني في الذهن. ولكن دراسة لغة الطفل لم تقدمنا خطوة نحو حل المشكلة: كيف نشأت اللغة. وذلك لاسباب عديدة منها ان الطفل لا يعيد تاريخ نشأة اللغة، لان اللغة مكتسبة لا وراثية. فانه اذا فصل طفل هندي او عربي او ياباني عن محيطه في يومه الاول ووضع في محيط آخر، كأن نضعه في برلين او موسكو، فانه ينشأ على لغة المانيا او روسيا. ثم ان اعضاء النطق في الانسان ليست اصلا للنطق. فانه كان يوم لم تكن فيه لغة، وهذه الاعضاء الجسمية التي نسميها اعضاء النطق هي لاغراض جسمية اولا ثم للنطق ثانيا كاللسان والرئة والحنجرة وغيرها. هذه الاعضاء اكتسبت استعداداً ان تلين لعمليات النطق اما هي في جوهرها فلاغراض جسمية أخرى. وأهم من هذا كله ان لغة الطفل، وعلى وجه التدقيق الكلمات الاولى التي ينطق بها - لان ما ينطق به لا ينطبق عليه اسم لغة - ليست افعالا ولا اسماء ولا حروفا ولا جملا مركبة من مبتدأ وخبر انما هي اصوات بدائية لاغراض كثيرة وللتعبير عن حالات كثيرة. فقد يحدث الطفل صوتا يعني: انا منزعج. هل من يريحني؟ وصوتا آخر يعني أنا جائع. وصوتا آخر يعني انا اتألم من وجع. نحن نسبغ على هذه الاصوات معاني، والطفل بدوره قد يقرنها بمعان وبحالات واستجابات، ولكنه عندما يكبر يعلمه المجتمع ان يقول: انا جوعان، انا متألم، أنا سعيد... الخ. فالمجتمع اذن يعطيه اللغة، وهو يلعب دور المقلد لا المبتكر الخالق، واذا ابتكر او خلق كلمات مثل كلمة «نَنّـي» في لبنان او «ان كغ» فاننا لا نقبلها منه ونقول له قل «أكل» او قل «انا مبسوط!» اذن دراسة لغة الطفل لا تلقي كثيرا من النور على السؤال الذي عنونا به الفصل: كيف نشأت اللغة؟ وانت ترى الان لماذا لا يدخل عالم اللغة هذه القضية في عداد العلوم اللغوية بل

يتركها لعلوم اخرى كالبسيكولوجيا والانثروبولوجيا والميثولوجيا اذ ان اللغة لم تبدأ بالمنطق والفكر، اذ لم يكن هناك منطق او فكر. علينا، ربما، ان نفتش عن نشأة اللغة في نشأة الاسطورة وتطورها اذ ان الاسطورة واللغة في مبدئها من نسيج واحد ودوافعها الحياتية من معدن واحد[١].

(١) من له رغبة في هذه النظرية الاخيرة عليه ان يراجع دراسة لعالم الماني؛

Ernest Cassirer: Sprache und Mythos (No. VI Studien der Bibliothek Warburg).

Ernest Renon: Histoire genéral et systéme comparé des langues Sémitiques, Paris.

اللغة والعرق والعقلية

وقد شغلت هذه القضيّة ـ اللغة والعرق والعقليّة ـ بال علماء اللغة في القرن التاسع عشر، اذ حاولوا، تحت تأثير علم الانثروبولوجيا والاثنولوجيا، ان يجدوا علاقة بين اللغة وبين عقلية الشعب الذي يتكلم هذه اللغة او تلك. وحاولوا ان يجدوا في اللغة، ولا سيما في تركيبها، أي في صرفها ونحوها، انعكاسا للميزات العرقية والاخلاق والمثل والنظرة الى الحياة عند الشعب الذي يتكلم هذه اللغة. والدراسات التي عنيت بطبائع الشعوب ومميزاتها المبنية على اعتبارات لغوية صرفة كثيرة العدد. وجميعنا يذكر ارنست رينان وحكمه القاسي على الشعوب السامية وعقليتها وصفاتها الخلقية بناء على درس العبرية بوجه خاص[1]. واني اذكر قراءة مقال لعالم الماني يبحث الفاظاً مختلفة وما تعكسه من صور ذهنية تعكس بدورها عقلية الشعب الذي يتكلم تلك اللغة، ومن جملتها لفظة interessant. يقول ان هذه اللفظة الغربية لا يمكن ان تنقل الى لغة سامية، واذا نقلت فانها تفقد الناحية الروحية العقلية التي تتضمنها اللفظة الغربية. ويعزو هذا العجز عن وضع لفظ مدلوله مدلول لفظة interessant الى طبيعة العقل السامي الذي ينقصه الشغف العقلي واللذة الروحية اللذان تعكسها اللفظة الغربية. اذن لا يمكن الشعب السامي ان يكون قد اسهم

---

(١) وراجع رد ثيودور نولد كه عليه في مقاله الرائع اللغات السامية الذي ترجم خصيصاً لدائرة المعارف البريطانية تحت عنوان: Semitic languages الطبعة الثالثة عشرة.

في خلق العلم والفلسفة والفن، لان أساس العلم والفلسفة والفن اللذة العقلية والشغف الروحي والرغبة الملحة في استجلاء غوامض الكون.

وكان من حرصهم على هذه الدراسات انهم حاولوا تصنيفها الى عائلات والنظر في خصائص كل منها. وقد صنفوا اللغات المعروفة الى ثلاث عائلات كبرى:

أ - الفاصلة Isolating

ب ـ اللاصقة Agglutinative

جـ ـ المتصرفة Flexional

فالفاصلة هي اللغة التي لا يتغير فيها شكل الكلمة (او الجذر) أنّى وقع في التركيب. اما العلاقة الصرفية والنحوية بين كلمة واخرى في الجملة فتتوقف على موقع الكلمة في الجملة لا على تصريفها او على حالاتها الاعرابية. واللغة الصينية هي من هذا النوع. فان الضمير انا لا يتغير شكله، كما هي الحال في لغتنا العربية تبعا للحالات الاعرابية والصرفية، بل يظل على شكله الاول، انما يتغير مركزه في الجملة، وهذا التغيير في مركز الكلمة يدل على الحالة الاعرابية او على الوظيفة النحوية التي تقوم بها الكلمة. وايضاحا للمسألة نقول ان في لغتنا نحن يتغير الضمير «انا» الى «تُ» في مثل اكلتُ، ويتغير الى «ني» في مثل احبني، ويتغير الى «ي» في مثل كتابي، واذا أكدناه قلنا اياي. اما في الصينية فيقال: اكل انا احب انا كتاب انا وفي حالة التأكيد انا انا.

واللغة الانكليزية تحتفظ بعناصر من العائلات اللغوية الثلاث فهي فاصلة ولاصقة ومتصرفة. ومثال على ميزتها الاولى (فاصلة) هذه الكلمات الخمس التالية:

Know, What, You, Mean, Li فانك تستطيع ان تركب منها عبارات عديدة ولكل عبارة معنى يختلف عن معنى الاولى، ولكن تبقى هذه الكلمات على شكلها، انما يتغير موقعها في الجملة؛

What you mean I know.

I know what you mean.

You know what I mean

What I mean you know.

...الخ

اما اللغات اللاصقة فهي التي لا يتغير فيها الجذر انما نستطيع ان « نلصق » به في اوله او في آخره، عناصر اخرى لخلق معان مختلفة. والتركية هي من هذا النوع، وكذلك الانكليزية فاننا نقول:

Reason, reasonable, reasonably, unreasonable, unreasonableness

وفي جميعها لم يتغير شكل الجذر الاصلي: Reason

اما اللغات المتصرفة فهي التي يتغير فيها الجذر او تتغير حركته، وقد يمتزج بعناصر أخرى، او عناصر اخرى تمتزج به في اوله ووسطه وآخره، وفي جميع هذه التغيرات يختلف المعنى. واحسن مثال على تصرف اللغات هو العربية مثل كتب كُتِب كاتب مكتوب استكتب... الخ وقد عدوا هذا النوع من اللغات المتصرفة ارقى اللغات - ربما لان اللغات الاوروبية متصرفة! - وحسبوا ان ادنى اللغات هي الفاصلة، واللغات الاوروبية متصرفة! - وحسبوا ان ادنى اللغات هي الفاصلة، واللغات اللاصقة هي وسط بين الطرفين. وقد قرنوا الاولى، اللغة الفاصلة، بالمجتمع الحضاري البدائي القائم على وحدة العائلة، وقرنوا اللغة الثانية، اللاصقة، بطور البداوة، وقرنوا الاخيرة، المتصرفة، بالحضارة الحالية الراقية.

ما لا شك فيه ان كثيراً من مفردات اللغة تعكس الى حد بعيد محيط الانسان الطبيعي، والى حد محدود بعض نواحي الحياة الاجتماعية والسياسية. فالعربية مثلا قد احتفظت بطابعها الصحراوي، واثر الصحراء والعيش الصحراوي القبلي الرحلي يبدو جليا في كثير من مفرداتها في لغتنا اليوم.

ولكن يجب الا نسترسل في الاستنتاج المبني على نوعية التركيب اللغوي. فان علماء اللغة اليوم لا يجدون ان التركيب اللغوي يعكس مزايا خاصة، او انه يدل على طبائع معينة او اخلاق ومثل عليا او دنيا. خذ مثلا التركيب اللغوي الذي يدل على الملكية (وهو في علم النحو الاضافة) فنحن العرب نعبر عن ملكية خالد للكتاب بقولنا: «كتاب خالد» وعندما يسمع العربي هذه العبارة يفهم طبيعة العلاقة بين الكتاب المحكي عنه وخالد. والانكليزي يعبر عنها بقوله:

The book of Khalid أو Khalid's book

ويعبر عنها الالماني بقوله: Das buch des Khalids

ويعبر عنها الافرنسي بقوله: Le livre de Khalid

وانت ترى ان الغاية قد تمت في جميع هذه اللغات، وهي اظهار علاقة الكتاب بخالد، ولا اعتبار للشكل الذي لجأ اليه العربي او الانكليزي او الالماني او الافرنسي للتعبير عن الفكرة. ولا مبرر للقول بان التركيب العربي احسن من التركيب الالماني او ان التركيب الالماني يعكس عبقرية لا نجدها في التركيب الانكليزي. جميعهم ارادوا التعبير عن شيء واحد وجميعهم نجحوا في التعبير عنه بطريقة فعالة مفهومة عند الناس الذين يتكلمون هذه اللغات المختلفة. اذن اللغة نتيجة لا سبب، وان نعزو الى التركيب خصائص عقلية وروحية واخلاقية فأمر مبالغ فيه جدا. وعلماء اللغة اليوم لا يثقون بهذه الاستنتاجات اللغوية، لا بل يخطئون الذين يحاولون ان يروا في اللغة وتركيبها انعكاسا للعقلية والاخلاق. فان في لغات بعض القبائل المتأخرة في الحضارة تراكيب عجيبة ومقدرة على التعبير بيسر وكفاءة تفوق أحياناً اللغة الالمانية.

والخلاصة يجب ان نفرق بين لغة وعرق وحضارة. فها هم زنوج اميركا يتكلمون الانكليزية ولا يعرفون لغة غيرها. والهنود الحمر الذين هجروا مواطنهم وانخرطوا في الحياة الاميركية لا يعرفون لغة غير الانكليزية. ولو

كان للغة خصائص عرقية معينة لا تلائم الا عرقا خاصاً أو عقلية خاصة او حضارة خاصة، لما وجدنا ان اللغة الواحدة قد تكون مشاعا لاعراق عديدة واداة لحضارات مختلفة.

ليس هناك من لغة لها عبقرية تفوق اللغات الاخرى، وليس هناك من عرق صاف خلق لغة خاصة تعكس عقليته. وكل ادعاء بان هذه اللغة او تلك احسن اللغات وأفصح اللغات واغنى اللغات واشرف اللغات هو من باب المباهاة. اللغة شيء والحضارة شيء آخر، واللغة شيء والعرق شيء آخر ويجب الا نخلط بينها.

علم اللغة (Linguistics)

ليس علم اللغة بمفهومه الحديث درس الصرف والنحو والبيان كما يدرس في المدارس الثانوية والمدارس العليا. هذا الدرس هو الجزء الميكانيكي من علم اللغة. ولا يُعْنى علم اللُغة بلغة واحدة بل يدرس اللغة بصورة عامة على انها ظاهرة انسانية اجتماعية بسيكولوجية، او هو جزء من درس المواصلات. وهو علم جليل القدر عظيم الفائدة في توجيهنا اللغوي والفلسفي لانه علم له أوثق العلائق بالفكر: الفلسفة والدين والادب والعلم والفن. بكلام آخر اللغة أساس جميع العلوم الانسانية، وهي طريق الانسان لفهم الكون والحياة.

ولكن ما يؤسف له ان يظل هذا العلم الحديث امرا مجهولا عند عامة المتأدبين وموضع استهزاء عند عامة الناس الذين ينظرون الى اللغة وعلمها انها من الدراسات الفارغة التي لا علاقة لها بواقع الحياة، او انها من جملة هذه الكماليات التي تتلهى بها العقول الخاملة. ولكن ما يسرّ له هو ان بعض الجامعات العربية (واخص بالذكر منها المصرية) بدأت تنشىء له (علم اللغة) الدوائر وترسل البعثات الى الغرب للتخصص في هذه الدراسات.

وقد يسأل احدنا: هل تخضع اللغة للعلم، للعلم التجريبي التطبيقي كما تخضع له عناصر الطبيعة القابلة للكم وللكيف؟ والجواب عن هذا هو ان علماء اللغة في ربع القرن الاخير حاولوا مخلصين اخضاع اللغة للعلم وقوانينه كما حاول، ويحاول، علماء الاجتماع اخضاع الظواهر الاجتماعية للعلم. وذلك لان اللغة

ظاهرة بيولوجية اجتماعية بسيكولوجية، والاسلوب العلمي يطبق في هذه العلوم جميعها فما الذي يمنع من تطبيق الاسلوب العلمي على اللغة على اساس انها شيء يوصف ويحد ويقيد ويخضع للمختبر؟

وقد يعترض احدنا: ان اللغة ظاهرة اجتماعية لا تلين لاحكام العلم الصارمة لانها في جريان او اندفاع مستمر (Continuous flux) وفي تغير دائم. وكل ظاهرة حية متطورة متغيرة تأبى التقييد. انما نحن نقيد جميع ظواهر الكون عند استقرارها وثبوتها. وفي هذا الاعتراض شيء من الصحة. ولذا يقول علماء اللغة اليوم ان وظيفة عالم اللغة هي في المرتبة الاولى الوصف (Description). فانهم ينظرون الى اللغة على انها لغة الساعة التي يصفونها بها او على انها لغة القرن الرابع او الخامس او التاسع عشر. وهذا الوصف الدقيق للغة في نقطة معينة من الزمان والمكان هو العلم ذاته.

ما هو هذا الاسلوب العلمي الذي اكثرنا الكلام عنه؟ ان هذا الاسلوب يتطلب قبل كل شيء موضوعية (Objectivity) أي تجرداً عن الذاتية، تجردا عن كل غرض وهوى وسابق معرفة، والبدء بالملاحظة والمراقبة وتدوين هذه الملاحظات. وبعد ان يتجمع لدى الدارس مقدار كاف من المعطيات (Data) يضع نظرية مؤقتة يظن انها تستطيع تفسير هذه الظواهر التي لاحظها او دوّنها. ثم انه في الطور الثاني يتقدم لامتحان هذه النظرية ليرى اذا كانت شاملة تعلل جميع هذه الظواهر. وهنا يثابر في التجريب والاختبار حتى يتأكد من صحتها. وكثيراً ما يرى ان عليه ان يعيد النظر في صحة هذه النظرية. ولكن اذا تبين له انها تستطيع ان تعلل جميع هذه الظواهر فانه يعلنها قانونا او قاعدة علمية. وقد طبق هذا الاسلوب في العلوم الطبيعية اولاً وكان من نتائجه هذه الاكتشافات العلمية الباهرة التي دفعت بالانسان صعدا في الحضارة الآلية، وفي سعيه الحثيث للوصول الى حياة افضل ماديا وروحيا. هذا الاسلوب العلمي يطبق الآن في درس اللغة. وقبل وصف هذا العلم يحسن بنا ان نذكر شيئاً عن تاريخ هذا العلم.

لعلم اللغة تاريخ مديد يبدأ بالبراهمة والاغريق والعرب، فان هذه الشعوب الثلاثة برزت في العلوم اللغوية وليس لنا ان نتبسط في تاريخ علم اللغة لان هذا يخرجنا عن الموضوع، ولكن نرى لزاما علينا ان نقول كلمة في القرون الثلاثة الاخيرة.

القرن الثامن عشر

ويعرف في تاريخ علم اللغة بعصر الفيلولوجيا الكلاسيكية والمقابلات اللغوية. وقد جهد علماء اللغة في هذا القرن ان يتوصلوا الى معرفة اصل اللغة. وكانت اكثر مباحثهم اللغوية اقرب الى حقل الفلسفة منها الى حقل اللغة. وكانت خاتمة جهود هذا القرن اكتشاف اللغة السنسكريتية على يدي العالم السر وليم جونز واظهار العلاقة بين هذه اللغة وبين الاغريقية واللاتينية والانكلوسكسونية القديمة. ومن هنا كانت التسمية: اللغات الهندوجرمانية او الهندواوروبية او اللغات الآرية نسبة الى اريا وهي ايران القديمة. كان هذا القرن بحق قرن الرومنطيقية في العلوم اللغوية.

القرن التاسع عشر

ويعد هذا القرن في تاريخ علم اللغة قرن الدراسات التاريخية التطورية للغة من صرف ونحو وتركيب ودرس اسباب هذه التطورات والسعي لايجاد نواميس عامة تتحكم في مصائر اللغة. في هذا القرن حاول علماء اللغات ان يجدوا في اللغة اعادة سيرة الشعب الذي يتكلم هذه اللغة او تلك. وكانت لفظة فيلولوجيا عندهم مرادفة لدراسة عقلية الشعب وحضارته. بكلام آخر كانت اللغة تدرس لغاية ولا تدرس لذاتها. اللغة مرآة تعكس روح الشعب.

وقد كان للعلوم البيولوجية في ذلك العصر اثرها في الدراسات اللغوية. يظهر لك ذلك في استعمال كلمة «عائلة» «واللغة الام» «القرابة» «والمهد الاول للغة» وجميع هذه المصطلحات وشبيهاتها مستمدة من علم البيولوجيا.

وكذلك تبسط علماء اللغة في القرن التاسع عشر في دراسات معنى المفردات وتطورها في التاريخ. وافضل شاهد على هذه الجهود قاموس اوكسفرد للغة الانكليزية ولاروس للغة الفرنسية.

وكذلك قضوا وقتاً غير قصير في الجدل حول تصنيف اللغة بالنسبة الى باقي العلوم الاجتماعية والطبيعية: هل يدخل علم اللغة في باب علم الاجتماع، ام في باب البسيكولوجيا، ام في باب الفلسفة؟

القرن العشرون

اما القرن العشرون فيحق لنا ان نسميه في تاريخ علم اللغة القرن الوصفي (Descritpive) لانه لا يُعْنى بالناحية التطورية التاريخية ولا يُعْنى بالناحية البسيكولوجية بل تتركز الجهود في وصف اللغة وصفا علميا دقيقا سواء اكان ذلك من جهة الصوت (Phonology) ام من جهة الشكل (Morphology) ام من جهة التركيب (Syntax) وتمثل مدرسة لندن، قسم الفونتيك وعلم اللغة، هذا الاتجاه احسن تمثيل. فانك اذا كنت طالبا في هذه المدرسة وشاقك ان تعرف السبب لماذا، وكيف، ولاية غاية حدث هذا في تاريخ اللغة، ومتى حدث، لاجابك الاستاذ بقوله نحن هنا لسنا في دائرة التاريخ! لا يهمنا «لماذا»؟ ولا نُعْنى بالاسباب والعلل لاننا لا نعرف الاسباب والعلل. لماذا رفعوا الفاعل ونصبوا المفعول به ولم يعكسوا الامر فنصبوا الفاعل ورفعوا المفعول. ولو انهم فعلوا هذا لقبلنا المنطق ذاته. يهمنا تقرير الواقع. اللغة في نظرنا هي اللغة الحاضرة، لغة الساعة التي انت فيها، وعملنا هو ان نصف هذه اللغة على مراتب[1]: مرتبة الصوت، ومرتبة الصرف، ومرتبة النحو او التركيب، ومرتبة الاسلوب والبيان، وغيرها من مراتب. وعندما يتم وصف اللغة، ومتى تجمعت

---

(١) مرتبة ترجمة اللفظة الغربية Level. فانك اذا نظرت في الاصوات التي تتركب منها اللفظة فان دراستك لها تكون على مرتبه الصوت، On phonological level واذا نظرت في مقاطعها فانك تعني بمرتبة التركيب المقطعي Syllabic structure ... الخ.

لدينا جميع المعلومات الاساسية. عنـد ذاك يحق لنـا ان نعمـم، او ان نشير الى الاتجاه، او ان ننظر الى التاريخ، او ان نتلفت الى المستقبل. نحن لا ندرس اللغة درساً حدسياً بل واقعياً.

ما هو علم اللغة وما هي مادته؟ ان علم اللغة من العلوم الحديثة التي لم تستقر بعد ولم تتخذ شكلا معيناً محدداً كما هي الحال في بقية العلوم. وقد مر هذا العلم في طورين. ففي الطور الاول كانت مواد هذا العلم تنحصر في:

(أ) علم اللغة العام General linguistics

(ب) علم المقابلات اللغوية Comparative philology

(جـ) درس التطور الصرفي والنحوي Historic gramar

أما في الطور الثاني فقد اشتمل هذا العلم الى جانب ما ذكرنا حقولا اخرى:

(أ) الحقل الفيزيائي - البيولوجي

(ب) الحقل البسيكولوجي - الفلسفي

(جـ) الحقل اللغوي الصرف من جهة وصفية بحتة لا من جهة فلسفية.

اما علم اللغة العام General linguistics فيعنى باللغة اطلاقا اي انه لا يحصر همه في درس لغة واحدة بل يتناول اللغة كظاهرة انسانية اجتماعية، فيدرس نواميسها العامة من صوت وتركيب واسلوب، ثم ينظر في تطورها ونموها وانحلالها الى لهجات، وينظر في اثرها في المجتمع. اما علم المقابلات اللغوية Comparative philology فيعنى بمقابلة لغة باخرى للوقوف على المشترك وعلى المختلف بينهما. ويدرس التطور الصرفي والنحوي كما يظهر في مقابلة صرف لغة بصرف لغة اخرى. ويحاول ان يجد في هذه المقابلات ما يلقي النور على الاسباب والعلل. واما درس التطور النحوي والصرف Historical grammar فيعنى بدراسة صرف ونحو لغة ما دراسة تاريخية. وقد ينظر احيانا في الصرف

الحي (Living grammar) اي صرف اللهجات ونحوها عله يجد فيه ما يفسر ما غمض في دراسته التاريخية. اما علم اللغة في الفترة الاخيرة فقد تناول كما اشرنا حقولا ثلاثة نحب ان نقف عند كل منها قليلا لنعرض على القارئ العربي اسلوب الدراسة الغربية الحديثة للغة.

الحقل الفيزيائي - البيولوجي

وهذه الدراسة تُعْنى بالاصوات اللغوية من ناحيتيها الجسمانية (الفيزيولوجية) والفيزيائية (Physical) فان الصوت مجرى هوائي يبدأ في الرئتين، الى الحنجرة، الى الفم، الى مخرج الفم. ولكن هذا المجرى الهوائي في مسيره من الرئة الى الشفة يتكيف ويتحور ويتغير تبعا لما يعترض سيره من حواجز وعقبات تضعها في سيره كل من الاوتار الصوتية، فمؤخر الحنك، فاللسان، فالاسنان، فالشفتان. وتستطيع ان تدرك هذا لنفسك اذا قارنت بين التنفس العادي والنطق باصوات لغوية. فانك اذا دفعت بالهواء من رئتك فاتحا فمك ومانعاً الاوتار الصوتية ومؤخر الحنك واللسان والشفتين من ان تعترض المجرى الهوائي فلا يحدث في هذه الحالة صوت لغوي، بل يحدث ما نسميه تنفساً عادياً. ولكن هذا المجرى الهوائي ذاته اذا اعترضه معترض تغير وتحور. وعندما نقول ان في اللغة الفلانية ٢٨ او ٢٩ صوتا لغويا فاننا نعني علميا ان المجرى الهوائي من الرئة الى الشفتين يتحور ويتغير الى ٢٨ او ٢٩ صوتا مختلفا.

ويلاحظ القارىء ان الحقل الفيزيائي - البيولوجي يتناول الاصوات اللغوية من ناحيتين: فيزيولوجية جسمية وتعنى بعملية التنفس ووصف اعضاء النطق، الحنجرة والاوتار الصوتية ومؤخر الحنك واللهاة والانف واللسان والشفتين وكل عضو آخر قد يشترك بعملية النطق، وفيزيائية وتعنى بطبيعة الصوت (Acoustics) ودرس الاصوات اللغوية من هذه الناحية يعرف بعلم الفونتيك (Phonetics) وهو من الدروس التي تفرض فرضا على كل من اراد التخصص

في علم اللغة، لانه درس اساسي. وكما ان الطبيب لا يمكنه ان يصبح طبيبا اذا لم يكن قد اتقن اولا درس الفيزيولوجيا، هكذا طالب علم اللغة لا يستطيع تعليل كثير من الظواهر اللغوية كالاعلال والادغام والاشمام والامالة والتفخيم والاختلاس والتليين وانحلال النظام الصوتي ونشوء اللهجات اذا لم يكن له معرفة بطبيعة هذه الاصوات وبالنواميس التي تتحكم بها.

وليس لطالب علم اللغة ان يكون فيزيولوجيا يتخصص في دراسة الجسم كله، وليس له ان يكون عالما فيزيائياً. انما طبيعة اللغة وطريقة النطق بها تتطلب معرفة عامة لفيزيولوجية الصوت وفيزيائيته. وقد انشأت الجامعات الكبرى دوائر خاصة لعلم الفونتيك لها اساتذتها ومختبراتها ومكاتبها. واذا قيض لك ان تزور احدى هذه الجامعات وجدت ان مختبر الفونتيك بالآلة المصورة والمسجلة واشعة اكس لا يقل تعقيداً وأهمية عن مختبر الفيزياء. ان دراسة الصوت من ناحيتيه الفيزيولوجية والفيزيائية تعتبر في علم اللغة مقدمة له (Prelinguistics) مقابلة له باللغة ذاتها من حيث هي اصوات تقرن بمعان (Linguistics) ومقابلة لهذين الحقلين بما يسمونه الان (Metalinguistics) أي ما وراء الظاهرة الطبيعية للغة، اي علاقة اللغة بالفكر والادب والفلسفة.

الحقل البسيكولوجي - الفلسفي

وقد المعنا الى اهمية هذا الدرس درس بسيكولوجية اللغة، عندما بحثنا «ما هي اللغة»؟ وقد مثلنا للقارئ بحادثة الولد الذي طلب الى ابيه اقتطاف تفاحة له، وماذا دار بينهما من كلام. وقلنا ان عملية التكلم على بساطتها الظاهرة، عملية معقدة جداً تتناول الصور الذهنية التي يسببها تأثرنا بالعالم الخارجي، والكيفية التي بها تتغير هذه الصور الذهنية الى صور صوتية تعبيرية (Verbal symbolism). وقد سألنا اسئلة عدة عما يجري في الدماغ وكيف يجري، وكيف تحضر المتكلم المفردات، وكيف يكون لهذه المفردات معان مقررة في الذهن. وهناك مشاكل بسيكلولوجية فلسفية أخرى لها علاقة وثيقة باللغة. ما

هي أقسام الكلمة؟ اتعلم ان علماء اللغة ليسوا على رأي واحد بل تختلف اجوبتهم عن هذا السؤال كثيراً (من ٢ الى ٣ الى ٧ الى ١٧). ثم ما هو تحديد الفعل؟ ما هو الاسم؟ ما هو الحرف؟ وهل التعاريف القديمة صحيحة دقيقة؟ وما هي وحدة الكلام، الكلمة أم الجملة؟ هل صحيح ان الجملة هي المؤلفة من مبتدأ وخبر او فعل وفاعل؟ وما قولك بجواب مفيد مثل «نعم» جوابا لمن يسألك: هل هذا هو المطعم الذي سنأكل فيه؟ هل «نعم» جملة مفيدة؟ وقد لا نقول «نعم» بل نكتفي باشارة بالرأس او بالتغيير في الملامح او بنوع من النحنحة التي تفيد ما تفيده لفظة نعم. فهل هذه من اللغة؟ البسيكولوجي يقول نعم هي رد الفعل لمؤثر خارجي. وهناك قضية المعنى (Meaning) وكيف يتكون في الذهن وكيف يقرن بمجموعات معينة من الفونيات. ثم هناك قضية الفلسفة والمنطق: هل تصلح اللغة ان تكون اداة لها ام انها تعوق التفكير الفلسفي لانها ظاهرة قديمة نشأت عندما لم يكن هناك فلسفة؟ وأخيراً، وهذا اعقد المسائل اللغوية، هل هناك فكر مجرد، اي هل هناك فكر او تفكير بدون كلمات؟ جرب ان تفكر واسأل نفسك: هل استطيع ان افكر او ان ادرك الامور بدون كلمات؟

ان هذه القضايا على غاية من التعقيد والغموض. واذا انت راجعت فهرس المكتبة اللغوية (اي الكتب التي تبحث علم اللغة) لوجدت العديد من المجلدات الضخمة الموزعة بين حقول الفلسفة واللغة والبسيكولوجيا والتربية التي تبحث هذه القضايا... ولكننا نحن لا نعيرها شيئاً من اهتمامنا. وعلماء اللغة يحاولون ان يجدوا لهذه الاسئلة اجوبة مقنعة. وتراهم في شبه تنافس علمي مع البسيكولوجيين الذين يقولون ان اللغة ظاهرة بسيكولوجية اجتماعية فلسفية، اذ ان علمها يقع في علم البسيكولوجيا. يقول علماء البسيكولوجيا لعلماء اللغة لقد حاولتم في القرون الثلاثة الاخيرة ان تحلوا مشاكل اللغة ولم تفلحوا فاتركوها لنا الان[1].

---

(١) من هذا القبيل كتاب الاستاذ كانتور J.B. Kantor: An Objective Psychology of grammar. Bloomington 1936.

الحقل اللغوي الصرف

ومن الناس من ينصرف الى درس لغة ما دراسة وصفية تقريرية دون النظر الى الملابسات الاجتماعية والفلسفية والبسيكولوجية. فيحصر همه في وصف اصوات اللغة واحكام التركيب ووضع المعجم (نعني مفردات اللغة) حسب اسلوب علمي دقيق.

يفرق دارس اللغة بين «لغة قديمة» و«لغة حية». فالقديمة هي التي وصلتنا من نقطة معينة في الزمن حسب نماذج مدونة. واعتمادنا في هذه الدراسة التقليد Tradition واحسن مثال على هذا النوع من الدراسة العبرية كما تُدرس في الجامعات، او السنسكريتية كما كان ينطق بها البراهمة في الالف الاول قبل المسيح. والعيب في هذه الدراسات، في نظر عالم اللغة، هو انها لا تعتمد النطق بل الكتابة، والكتابة غير النطق. الكتابة رمز النطق. اما النطق الصحيح والتركيب الصحيح فهو الشائع على السنة الناس لا المدون في الكتب. ولكن هذا لا يعني اهمال درس اللغات القديمة او الانتقاص من قيمتها، كلا انما اللغة في نظر عالم اللغة هي اللغة كما وصلت الينا في اليوم الذي فيه ندرس تلك اللغة. اللغة الحية هي لغة الناس.

واذ فرّق عالم اللغة بين قديمة وحديثة فانه لا يفرق في اسلوب الدراسة. وهذا الاسلوب، الذي تمثله مدرسة لندن احسن تمثيل، يعتمد اولا تسجيل اللغة واللهجة المنوي درسها. فيؤتى بأناس يعتقد عالم اللغة انهم خير ممثلين لتلك اللغة. فيقرأون او يقصون او يتحدثون عن امر ما على رسلهم وبطريقة طبيعية. وفائدة التسجيل هو ان الباحث يستطيع ان يردد على مسمعه لغة المسجلين مرارا وتكراراً وفي اوقات تحلـو له. ثم يبدأ بدرس المدون حسب ما اصطلحوا عليه بالمراتب (levels) فهناك المرتبة الصوتية Phonological level أي ضبط دقيق لنظام الاصوات اللغوية، واختلاف النطق بالاحرف المصوتة، وتسجيل اثر حرف في آخر، وما الى هذا العلم من قبيل (وهذا جزء من

فونتيك اللغة) ثم يتلو هذه المرحلة درس التركيب ويعرف بالمرتبة التركيبية Morphological level وبكلامنا العادي: صرف اللغة ونحوها. ثم يأخذ بدرس معجمية اللغة Lexical level وهناك مرتبة اخيرة Semantic level أي المرتبة المعنوية التي تعنى بالمعنى وتطوره.

وتجدر بنا الاشارة الى هذا العلم عند العرب. فانهم كالهنود والاغريق برزوا في هذا الحقل، وذلك لمقام القرآن الكريم في حياتهم الدينية والاجتماعية. ولكن، وهذا مما يؤسف له، لم يعتبر لغويّو العرب اللهجات، ولم ينظروا الى اللغة انها ظاهرة اجتماعية حية نامية متطوّرة، بل اقتصرت جهودهم على درس وتدوين لهجة معينة في الزمان والمكان، وحرصوا على ضبط احكامها وقواعدها لكي لا يجد التغيير اليها سبيلا. ولكن اللغة لا تعرف التحديد ولا تقبل بالجمود بل اللغة سيل جار Continuous flux.

اثر علم اللغة في تفكيرنا اللغوي

لعلم اللغة الحديث، كما وصفناه لك باقتضاب كلي في الفصل السابق، اثر عميق في تغيير نظرتنا الى اللغة ووظيفتها واثرها في الفرد. ويحسن بنا ايضاحاً للامر وايجازاً في البحث، ان نذكر على شكل نقاط أهم النتائج التي اسفر عنها هذا العلم، والتي كان لها نصيب في تغيير نظرتنا التقليدية القديمة:

(أ) ليس هناك لغة افضل من لغة

(ب) للغة مجرى

(جـ) ليس هناك لغة رديئة واخرى جيدة

(د) لا اعتبار للكتابة وقواعدها في علم اللغة انما الاعتبار للفظ

(هـ) اللغة اكثر من فونيمات

(و) توافق اللغة والفكر وتفاعلهما

(ز) ان الوحدة الكلامية هي التعبير التام «الجملة»

(ح) ليس للغة كيان بدون الانسان

(أ) ليس هناك لغة افضل من لغة

لقد اثبت علم اللغة الحديث ان اللغة ظاهرة اجتماعية يتميز بها كل مجتمع

انساني. وهي ظاهرة انسانية لا علاقة لها بالآلهة، ولم تهبط من عل، بل نشأت من أسفل، وتطورت بتطور الانسان ذاته، ونمت بنمو حضارته. وليس هناك من مبرر للمفاضلة بين لغة وأخرى، كأن يقول احدنا ان في الالمانية عبقرية لا نجدها في الافرنسية، وفي الافرنسية مقدرة على التعبير لا نجدها في التركية. لكل لغة عبقريتها ومقدرتها على التعبير عن حياة المجتمع. وليست القضية قضية لغة افضل من لغة بل قضية حضارة ارقى من حضارة وحياة اغنى من حياة.

وكذلك لا مفاضلة في اصوات اللغة كأن يقول احدنا ان في الايطالية اصواتا اعذب موسيقى من اصوات العربية. فالذي نعده نحن البيض عذوبة في الصوت قد يعده الهندي الاحمر قبحاً وخشونة، وما نحسبه بيانا وفصاحة قد يرى فيه الزنجي غموضاً وتعقيداً.

ولا مبرر للقول بان مفردات لغة ما اكثر عدداً من مفردات لغة أخرى اذ قد يكون عندنا نحن البيض للصورة الذهنية لفظة خاصة تعبر عنها، بينما نجد ان الصفر او الحمر او السود من البشر لا يشعرون بان هذه الصورة الذهنية تحتاج الى لفظة خاصة بل قد يعبرون عنها بطريقة اخرى مخالفة ولكن فعّالة. وقضية المفردات لا تدخل في صميم اللغة. فنحن نباهي مثلا ان للشيء الواحد عندنا اسماء عديدة، وللفعل الواحد افعالا عديدة، ولكن غيرنا يرى في ذلك اسرافا. والمفردات تهرم وتموت ويحل محلها مفردات اخرى. وقد تقتبس اللغة مفردات حضارة أخرى ارقى. وهنا نكرر القول ان القضية ليست قضية شعب راق او شعب متأخر، لانه عندما يرتقي الشعب ويتحرر افراد المجتمع من قيود الرجعية والتقليد تستطيع كل لغة ان تساير الحضارة بلسانها الخاص. قد يجد المجتمع نفسه مضطرا للتوليد والترجمة والاقتباس، ولكن هذا لا يضير اللغة بل يزيدها غنى.

(ب) للغة مجرى

لكلٍّ لغة مجرى تجري فيه حتماً. وهذا المجرى يتشعب الى مجارٍ اخرى مختلفة. وكلما بعد المجرى عن نقطة الانطلاق ازداد التباين والتغاير. مَن من عامة الناس يصدق ان الارمنية والايرانية والروسية والالمانية والارلندية واليونانية واللاتينية والانكليزية، على ما بينها من تباين واختلاف ظاهرين في المفردات وفي الصرف والنحو والاصوات واساليب التعبير، نقول من من الناس يصدق ان هذه اللغات تمثل مجاري متشعبة من مجرى واحد؟ وقل مثل هذا في اللغات السامية، فان العربية والعبرية والبابلية والفينيقية والسريانية والحبشية تمثل مجاري متشعبة من مجرى واحد. ولا يقف الامر عند هذا الحد بل ان هذه المجاري تتشعب بدورها الى مجار جديدة. فمن اللاتينية تحدرت لغات حية هي الفرنسية والايطالية والاسبانية والرومانية، وهذه بدورها ستنحل الى لهجات متعددة يموت بعضها بانحلال المجتمع ويعيش بعضها الاخر بتماسكه ونموه.

فاللغة تشبه تلك الشجرة التي تتدلى فروعها الى اسفل فتلامس التربة وترسل في الارض جذوراً تصبح اشجاراً فتية فيما بعد. وقد تموت الشجرة الأم ولكن من فروعها تنشأ اشجار جديدة. واذا قلنا ان اللغة تموت فانما نقصد بالموت التغير الكلي الذي يطرأ على المجتمع، والتبدل الجذري في الحياة وفي الظروف المحيطة بالحياة الى حد نستطيع فيه القول ان لغة اليوم مغايرة للغة أمس.

قد نستطيع بيسر ان نطيل حياة لغة ما باقامة سياج حولها من احكام شديدة وقوانين ثابتة، وقد نقيم حولها هالة من التقديس، وقد نضفي على ادبها مسحة من القدسية، وجميع هذه تطيل في حياتها، ولكن لا مفر من المحتوم: الموت. وكل حي يموت، واللغة حية فهي خاضعة لهذا الناموس. اليس في عربيتنا الفصحى اليوم كثير من المُمات؟

(جـ) ليس هناك لغة رديئة واخرى جيدة

ولست ادري كيف سيتقبل العرب هذه النتيجة التي اسفر عنها علم اللغة الحديث. فاننا قد اعتدنا ان نعتبر الفصحى لغة جيدة والعامية لغة رديئة. وكذلك اعتدنا ان نحترم «السلطة العليا» في اللغة فنقول: قال فلان وورد في شعر فلان. ولكن علم اللغة يقول لا سلطة عليا الا للناس، وما يقوله الناس هو الصحيح. واذا كان صرف العامية ونحوها يختلفان عن صرف الفصحى ونحوها فليس معنى هذا ان العامية خطأ أو لغة رديئة. هي خطأ بالنسبة الى الفصحى وليس بالنسبة الى ما يقوله الناس.

اللغة الجيدة هي التي تقوم بوظيفتها على اكمل وجه ان في الفهم والافهام، او في التعبير عن دواخل الناس بيسر وبدون اجهاد. ويعتبر علم اللغة كل كلام يخالف ما عليه الجمهور الشذوذ بعينه. وليس معنى هذا ان لا اعتبار للغات الكلاسيكية القديمة، او ان ليس لها قيمة، بل الامر على عكس هذا، انما تعتبر هذه القضايا قضايا تاريخية لها اوثق الصلة بتاريخ الشعب وبتاريخ لغته. ولكن اللغة الحية هي التي وصلت في مجراها الطبيعي الى النقطة التي نحن فيها، وكما هي في النقطة التي نحن فيها هي اللغة الصحيحة. فلو ان متحذلقا في مقهى ما نادى: «يا غُلام اجلبْ لِي قَـدَح مـاء» بـالاعـراب التـام، ولـو افترضنا ان السامعين لا يعرفون ان هناك لغة عربية فصحى معربة لكان رد الفعل عندهم: هذا الرجل لا يعرف كيف يتكلم باللغة الصحيحة اذ عليه ان يقول: «يا وَلَد جيبْ مَيْ» او يا ولد هَات كبّاية مَي» (وفي العراق كلاس (glass) مي) هذا هو المألوف وهذا هو الصحيح.

ان قضية فصيح وغير فصيح لا تدخل في نطاق علم اللغة بل ينظر اليها انها مسـألـة تـاريخيـة سيـاسيـة بحتـة. فـالالمانيـة التي يتكلم بها اهـل ورتمبورغ، والالمانية التي يتكلم بها اهل الالزاس، والالمانية السويسرية في نظر علم اللغة لغات مستقلة قائمة بذاتها حرية بالدرس والتدوين كما تدرس اللغة

الالمانية الفصحى (لغة المسرح) التي ليست سوى لهجة لوثر التي ترجم التوراة اليها ليقرأها الناس رغم معارضة الكنيسة. وقد أعجب الالمان بهذه اللهجة المرنة السيالة القريبة الى قلوبهم فاعتبروها لغتهم الفصحى. ولو ان مترجم التوراة، لوثر، كان من الالزاس او من الغابة السوداء لاصبحت واحدة من هاتين اللهجتين لغة المانيا الادبية.

اذن ارتقاء اللهجة الى مصاف اللغات الفصحى وقف على سلطة خارجية او على ظروف خاصة. ولكن علم اللغة الحديث لا يعترف بسلطة سوى سلطة الشعب. فلا يحق لنا مثلا ان نزعم ان لغة القرن الرابع افضل من لغة القرن الثاني او السادس، ولغة الكتاب الاحمر احسن من لغة الكتاب الازرق. ما يقوله الناس، وما يكتبه الناس، هو الصحيح، وسوى هذا فقضية تاريخية سياسية دينية.

اثار جون واليس (wallis) في القرن السابع عشر مسألة الفرق بين معنى will وبين معنى shall وشدد في التفرقة. وقد تابعه صرفيون من بعده ولكن مَن مِن ملايين الناس الذين يتكلمون الانكليزية يعرف الفرق الدقيق بينهما؟ واذا تعلم هذا في الصف فهل يفرق بينهما في لغته العادية اليومية؟ يقول ادورد سابير في كتابه «اللغة» ص ١٦٦ - ١٧٧ ان لفظة whom مهما حرص الناس على المحافظة عليها، في طريقها الى الموت. ويعتقد سابير ان السؤال المغلوط به من ناحية قواعد اللغة: who did you see سيكون الشائع الصحيح، وان الشكل الصحيح whom did you see سيكون موضع استغراب واستهجان بعد قليل واكثر علماء اللغة يقبلون بنظرية سابير لانه اذا كانت اللغة للفهم والافهام فان احسن لغة وافصح لغة هي التي تُفْهم وتُفهم بايسر ما يكون من الجهد.

(د) لا اعتبار للكتابة وقواعدها في اللغة، انما الاعتبار للفظ

ليست الكتابة من جوهر اللغة. اللغة اقدم من الكتابة، والكتابة عرض.

اللغة مجموعة اصوات لغوية، والكتابة رموز لهذه الاصوات شأنها في ذلك شأن رموز قطعة موسيقية. الرموز الموسيقية ليست الموسيقى. وقد تكون رموز الكتابة حروفا لاتينية او عربية او هندسية شكلها اجل من شكل الحروف الحاضرة، فقد نرمز مثلا الى الفونيم ـ ن ـ بشكله اللاتيني n او بصورته الكتابية في اللغة الصينية او بشكل هندسي موضوع لا فرق في ذلك كله شرط ان يكون لهذه الرموز المختلفة قيمة صوتية مصطلح عليها.

ونمثل لك على صحة هذا ـ من ان الكتابة عرض واللفظ جوهر ـ بمثال من لغتنا العربية. فمن المقرر المعروف ان كتابتنا العربية غير المشكلة اشبه بهيكل عظمي للكلمة لا حياة له الى ان يسبغ القارىء عليه حياة باضافة الحركات واخراج النطق الصحيح. وينطبق هذا القول، الى حد ما، على جميع اللغات ولكنه ظاهر الوضوح في العربية الخالية من الحروف المصوتة. خذ مثلا جملة «من علمني حرفاً صرت له عبداً» فانها مجموعة حروف صامتة لا يمكن احد الناس ان يقرأها ما لم يكن يعرف مسبقاً انها كيت وكيت في اللفظ. ويدرك القارىء هذا الأمر بوضوح اذا كتبنا الجملة بالحرف اللاتيني فانها تكون هكذا:

mn lmni hrf srt lh ‘bd

وظاهر ان كتابتها لا تدل على لفظها مطلقاً، انما يستطيع العرب قراءتها لانهم يعرفونها مسبقاً. اذن الكتابة ليست اللغة بل اصطلاح لتدوين الفاظ اللغة، وقد يكون هذا الاصطلاح حسنا ينقل اللفظ بيسر ووضوح كما هي الحال في الحرف اللاتيني، وقد يكون اصطلاحا غير موفق كما هو في الكتابة الصورية، او كما في الحرف العربي الخالي من الحركات.

ويجب ان نلاحظ ايضاً ان اللغة لا تعرف الجمود، فهي ابداً في تغير متسمر بينما الكتابة جامدة ثابتة محافظة. ولذلك نرى فرقاً عظيماً بين الكتابة واللفظ، ذلك لان اللفظ يتغير ولكن محافظة الانسان على شكل الكتابة تجعلها

تتسكع في المؤخرة. فالانكليزي يكتب laugh ويلفظ laf ويكتب through ويلفظ thru وكذلك الافرنسي فانه يكتب ils mangent ويلفظ il manj وعندما تهب طبقات الشعب مطالبة بالتيسير هنا وفي انكلترا وفي فرنسا تصطدم برجعية عنيدة. ولكن سيأتي يوم، وهو قريب، عندما يدرك كل انسان، وليس علماء اللغة فقط، ان الكتابة عرض واللفظ جوهر. وهذه القضية، بالنسبة الينا نحن العرب، امر يجب ان ندركه على وجهه الصحيح لان حرفنا من اعقد مشاكل اللغة.

يأخذ علماء اللغة المعاصرون على الصرفيين الكلاسيكيين مبدأ اعتبارهم الكتابة مقياسا للغة فجاءت اكثر قواعد الصرف والنحو في كثير من اللغات قواعد كتابة لا قواعد نطق وفهم وافهام. ولقد فات الصرفيين القدماء ان المكتوب محنط ثابت وان اللغة جسم حي نام متطور. وكل قانون مبني على المحنط الثابت يؤدي الى نتيجة محتمة: فرق شاسع بين المكتوب والمقروء.

الصرفي يجمد اللغة ويوقفها عند حد معين ولكنه في عمله هذا يشبه رجلاً يضع سياجا من قصب في وجه دبابة من فولاذ؟

(هـ) اللغة اكثر من فونيات

ليست اللغة مجموعة كلمات مركبة من فونيات، وليست اللغة رموزاً كتابية. هذه من اللغة، وجزء هام من اللغة، ولكن اللغة فضلا عن هذه، حياة. فاننا عندما نتكلم لا نتفوه بسلسلة من كلمات على نغم واحد دون احساس او شعور كآلة ميكانيكية تردد اصواتاً لا حياة لها. كلا، بل في اللغة عنصر هام هو العنصر الانساني الذي يضفي على اللغة مسحة من تأثير السحر والجمال.

هل سمعت شاعراً يلقي قصيدته هو ذاته؟ خذ القصيدة ذاتها واقرأها انت لنفسك ثم أصغ الى ناظمها يقرأها فانك تجد فرقا عظيما بين قراءتك اياها وبين قراءة الشاعر. الفرق في العنصر الانساني. فاننا عندما نتكلم نرفق

كلامنا، وبدون تكلف وتصنع، بشيء من الاحساس والعاطفة والصوت المنخفض احيانا والقوي احياناً اخرى، والنغم، والنبرة، والاشارة الخفية باليد، وبانفعالات تظهر في ملامح الوجه. واحياناً نتكلم وكأن الجسم كله يشترك في هذه العملية. ثم اننا نخاطب الطفل بلغة وبنغم يختلفان عن لغتنا ونغمنا عند كلامنا مع الرئيس والصديق او الحبيب او الخادمة. هذه الاضافات هي من صلب اللغة ولكن لا تظهر كتابة انها من اللغة. واذا كنت في شك من ذلك ـ من انها جزء من اللغة لا ينفصل عنها ـ نمثل لك بمثلين من الحياة: المسرح وقراءة الاولاد في قاعة الدرس.

اذكر اني شاهدت رواية تمثل على مسرح من مسارح لندن اعجب بها الجمهور الى حد ان الرواية ظلت تمثل مدة سنتين. واذكر اني قبل مشاهدتي الرواية قرأتها في طبعة رخيصة، ثمن النسخة شلن. ولا اظن اني استمتعت بقراءتها ولا اخذت بما فيها من احاديث ونكات، من جنون وفلسفة، من كذب وصدق، من رياء واخلاص. ولكن شعرت شعوراً يختلف تمام الأختلاف عندما شاهدت الرواية على المسرح. استمتعت كثيراً وضحكت كثيراً وفكرت كثيراً وتأثرت كثيراً ولماذا؟ ذلك لانني عندما قرأتها لم ألمس العنصر الانساني، اما على المسرح فاشخاص الرواية احياء يتكلمون وفي كلامهم حياة، واحيانا كثيرة لم يتكلموا، ولكن الجمهور كان يقرأ، ويقرأ بوضوح، ما يجول في عقولهم وقلوبهم من افكار وعاطفة. كانت عيونهم وملامح وجوههم وحركات اجسادهم تتكلم. ليست اللغة فونيات فقط، للغة حياة وهي العنصر الانساني.

هل دخلت غرفة درس واصغيت الى الاولاد يقرأون؟ هناك معلمون ومعلمات ادركوا ان القراءة الفعالة هي التي يكون فيها العنصر الانساني ظاهراً قويا مؤثراً، فيطلب المعلم او المعلمة الى التلاميذ ان يرفعوا الصوت هنا وان يخفضوه هناك. هنا سؤال وهناك جواب، هنا شدة وهناك لين، هنا فرح وهناك حزن، هنا استعطاف وهناك طلب، وفي جميع هذه الحالات يجب ان

يظهر المعنى بواسطة اضافة العنصر الانساني الذي لا تراه في السطر امامك. ومما يؤسف له ان في مدارسنا العربية لا تزال القراءة نوعاً من الترديد الميكانيكي وعلى نغم واحد مزعج من اول الصفحة الى آخرها.

(و) توافق اللغة والفكر وتفاعلها

كثيراً ما تثار قضية وجود فكر مجرد بدون لغة او رموز. وقد تُثار القضية بشكل آخر: اليس الفكر واللغة وجهين، او مظهرين، لعملية بسيكولوجية واحدة؟ واكثر ما تثار هذه القضية في حقول المنطق والفلسفة والبسيكولوجيا. وللعلماء فيها آراء مختلفة واحيانا متناقضة. ومما يدعو الى هذا الخلاف والتناقض في الرأي حرص المشتغلين بحل هذه القضية على ايجاد جواب حاسم: نعم هناك فكر مجرد بدون رموز، او لا ليس هناك فكر مجرد بدون رموز. وظاهر، الى وقتنا هذا، ان المسألة لا تتحمل الجزم سلباً او ايجاباً. فان كثيراً من الكلام لا يدخل في نطاق الفكر كما نفهم اللفظة بمدلولها العام. فانني عندما اقول: «نمت الليلة نوما هانئاً» فانني لا اعبر عن الفكر انما هو رد فعل بسيط لحالة جسمية شعرت بها. فكأن اللغة مولد كهربائي ضخم يمكن استخدامه لتحريك آلات ضخمة او لتحريك «ضرّابة» جرس كهربائي صغير.

الواقع هو ان مفردات اللغة ترمز الى فكر. كل لفظة تشبه «كبسولا» يتضمن فكرة او صورة ذهنية يرسّخها الاختبار في العقل. فعندما نقول، في الجملة التي استشهدنا بها آنفا، «نمت» فانها ترمز الى حدث او فعل يعرفه الاخرون بالاختبار، وليس من الضروري ان نفسر النوم وعملية النوم. وعندما نقول «الليلة» فانها تنقل الى السامع فكرة او صورة معينة، وكذلك عند قولنا «نوما هانئاً». فمن هذه الجهة نجد ان جميع الفِكَر او الصور الحسية والمعنوية مضمنة في مفردات اللغة. ولكن هذا لا يعني انه لا يمكن ان يكون هناك فكر او صور او حقائق في الكون وفي الحياة مجردة عن اللغة، او

ليست متلبسة برمز، أي بصوت لغوي. خذ مثلاً الحقائق الرياضية والحقائق الطبيعية فان لها وجوداً ذاتياً بقطع النظر عن الرموز التي تشير اليها. ولكن يُشك كثيراً فيما اذا كان الانسان يستطيع التفكير الرياضي، او حل المعادلات الرياضية او فهم حقائق الطبيعة بدون رموز. فهذا ناموس الجاذبية كان موجوداً قبل ان تتلبس الفكرة برمز لها، اي لفظة «جاذبية» وحقيقة الماء من انه مزيج من عنصرين بمعادلة معينة كانت قبل ان نضع له الرمز العلمي «H_2O» ولكن مما لا شك فيه هو ان اللغة تسهل الفكر، او كما كان يقول استاذنا سابير (Sapir) اللغة طريق ممهد او اخدود كالاخاديد التي تراها على سطح اسطوانة تمهد وتحدد السبيل للابرة لتمر فيه لتردد الصوت. فاللغة تسهل الفكر وتساعد على نمو الفكر. ونمو الفكر ذاته يعود فيؤثر في اللغة ونموها وتطورها. فالتفاعل بين اللغة والفكر امر واقع. ان ولادة فكرة ما يسبقها عادة نوع من التعبير اللغوي الواضح او غير الواضح، ولكن هذه الفكرة المولودة جديداً لا يصبح لها كيان ذاتي ما لم تتلبس رمزاً لغوياً، اي ما لم تُضمّن الفكرة في «كبسول» لغوي. عندها نشعر ان الفكرة المولودة جديداً قد اصبحت ملكا لنا واصبحت تشكل جزءا من تفكيرنا.

(ز) الوحدة الكلامية هي التعبير التام (الجملة)

تشبه اللغة نظاما هرميا معكوسا، أي قائما على رأسه الاعلى. وهذا الرأس الذي يرتكز عليه الهرم المعكوس يمثل الاصوات في اللغة او الفونيمات. وعلى الفونيمات تقوم مركبات الفونيمات اي الكلمات، وفوق الكلمات طبقات تصنيف الكلمات: اسماء ضمائر افعال... الخ. ثم تأتي الجملة فوق طبقة الكلمات. الوحدة الكلامية هي التعبير التام الجميل. ومن هنا كان اختلاف علماء اللغة في اقسام الكلمة، فمن قائل هي ثلاثة او اربعة او ستة او اكثر.

ان هذا التحليل من صنع الفلاسفة. واول من قام بهذا التحليل الذي يشبه الهرم المعكوس الاغريق والهنود. ولكن الانسان القديم الذي لا يميل الى

الفلسفة يعتبر التعبير التام الوحدة الكلامية، فلا تجزئة ولا تجريد. اللغة استمرار (Continuum). وفي كثير من اللغات لا تستطيع ان تجزئ الكلمة او العبارة الى عناصرها بل هي وحدة لا تتجزأ. يستشهد الاستاذ سابير[1] بكلمة واحدة من احدى لغات الهنود الحمر:

Wii — to — Kuchum — punku — rugani — yugwi — va — ntu — m

ومعناها: هؤلاء الذين سيجلسون لتقطيع بقرة سوداء بالسكاكين. وتحليل هذه الكلمة الى العناصر التي تتألف منها امر لا يخطر للهنود الحمر ببال. الجملة المفيدة عندهم تعبير غير قابل للتجزؤ. انما نحن الذين نُعنى بدرس اللغة درسا تحليليا نقسم اللغة الى طبقات. ولكن اللغة في واقعها الاجتماعي وحدة تعبيرية لا تقبل التجزئة.

ليعتبر القارىء ماذا يترتب على هذه النظرة من وجوب اجراء انقلاب اساسي في طريقة تدريس اللغة. يجب ان يكون التوكيد على الجملة، على التعبير التام المفيد. هذا هو الوحدة اللغوية لا الفونيم او مركبات الفونيم.

(ح) ليس للغة كيان بدون الانسان

وهذه حقيقة لا تحتاج الى اقامة دليل، فانها اقرب الى البديهيات منها الى الامور التي تتطلب البرهان. فالبابلية، مثلا، كانت لغة راقية يتكلم بها قسم كبير من سكان الشرق الادنى، وكانت كتابتها محترمة متبعة في اقاليم عدة، وخلفت آثاراً كتابية تتسع لوضع معجم كبير. ولكن اللغة البابلية ماتت لان الذين كانوا يتكلمون بها انقرضوا او اندمجوا في حضارات اخرى، لان لا كيان للغة بدون الانسان.

يترتب على هذا القول نتائج بعيدة الاثر، وابعدها اثراً اعادة النظر في فلسفة النحو المبنية على فكرة العامل ـ العامل اللفظي والعامل المعنوي ـ فقالوا

---

(١) Edward Sapir: Language, p. 31.

مثلا ان سبب الاعراب العامل فالرفع والنصب والخفض لا يكون الا بعامل، وسبب المنع من الصرف علة من العلل، وسكون لام الفعل في مثل «اكلت واكلنا» لاتصاله بضمير صحيح. بكلام آخر عزوا هذه المظاهر اللغوية لاثر كلمة في كلمة. فان «إنّ» تنصب المبتدأ وترفع الخبر، وكان ترفع المبتدأ وتنصب الخبر. فكأن للكلمة سحراً.

ومما تجدر الاشارة اليه ان بعض الصرفيين والنحويين لم يقبلوا بهذا المنطق فان ابن جني في «خصائصه» يقول ما معناه ان الرفع والنصب والجزم مرده الى المتكلم نفسه لا لشيء غيره، اي ان الانسان هو العامل الاول والاخير في عملية النطق. وقد ألّف مفكر عربي، ابن مضاء القرطبي، كتابا في الموضوع هذا سماه «الرد على النحاة» حاول فيه ان يدحض المنطق الذي كان يتمسك به النحاة، فانه يقول ان العامل هو الانسان ذاته. ليتصور القارىء ماذا يترتب على هذه النظرية الصحيحة للغة في تدريس اللغة. فعوضا عن ان نقول للتلاميذ في اعراب «العلم نافع» العلم مبتدأ مرفوع بالابتداء (عامل معنوي) نقول العرب تقول هكذا ولا تعليل آخر. وفي جملة «ان الطقس جميل» الطقس منصوبة لان العرب هكذا قالوا وكفى.

واني اذكر بهذه المناسبة بعض ما كان ينشأ من جدل بيني وبين الاستاذ (Firth) من جامعة لندن عندما كنت احضر مجلس تعليمه Seminar فانني كنت اطلب جوابا عن «لماذا»؟ «ما السبب»؟ فكان يجيبني الاستاذ: «السبب بسيط جداً: الانسان! وأي تعليل آخر هو حدس وتخمين او تقوّل في امور لا نعرف لها سبباً».

اللغة من الحياة الانسانية وللحياة الانسانية، وبدون الانسان لا كيان للغة، فان عاش عاشت وان مات ماتت.



القسم الثاني

في

نشأة اللهجة الأدبية والمحكية



لغة ولهجة

ما الفرق بينهما؟ وقد يعجب القارىء لهذا السؤال، فان الفرق عنده واضح ظاهر. ولكن على ضوء علم اللغة مبدئيا بين لهجة dialect ولغة literary language. كل لهجة هي لغة قائمة بذاتها، بنظامها الصوتي وبصرفها وبنحوها وبتركيبها وبمقدرتها على التعبير.

وقد يعترض احد الناس على هذا الزعم بقوله ان الفرق بين لهجة ولغة هو في الأدب. اللغة هي التي لها أدب. أي ان الأدب مقياس للتفرقة. وهذا الزعم مردود، فان لهجات الزنوج والهنود الحمر ولهجات الاقوام المتمدنة لها أدبها: شعرها ونثرها وقصصها وأمثالها وأساطيرها وأغانيها. وقد يختلف هذا الأدب في غناه الروحي والعقلي والجمالي عن آداب الشعوب التي خطت خطوات واسعة في عالم الفكر والفن والفلسفة والعلم، ولكن ذلك راجع لأثر الحضارة في الإجتماع. هذه الاقوام التي تتكلم لهجات لا يروق ادبها لنا اذا اتيح لها ان تأخذ بقسط من الحضارة فان هذه الاداب تتغير في روحها ومادتها وشكلها.

وقد يقول آخر: اللغة هي التي تغاير لغة أخرى بأصواتها وبمفرداتها وبتراكيبها مغايرة لا يستطيع معها ان يتفاهم زيد وعمرو. أما اذا كانت الفروقات في الاصوات والمفردات والتركيب من النوع الذي يمكن فيه التفاهم بين الجماعات فان هذه تحسب لهجات. اي، بكلام آخر، يضع صاحبنا التفاهم

مقياسا للتفرقة بين لهجة ولغة. ولكن هذا الزعم يسقط من تلقاء نفسه اذا اعتبرنا مثلا لهجة أهل البندقية ولهجة أهل صقلية، فانهما لهجتان (لا لغتان) ايطاليتان، ولكن اهل البندقية لا يفهمون اهل صقلية ولا اهل صقلية يفهمون اهل البندقية. التفاهم بينهما غير ممكن. وقل مثل هذا في اللهجات الرومانية اي الايطالية والفرنسية والإسبانية فاننا نسميها لغات (لا لهجات) بينما هي في الواقع التاريخي لهجات لاتينية. واذا اجتمع ايطالي بافرنسي فان التفاهم بينهما ليس مستحيلا. والامر كذلك في اللغات الجرمانية مثل الالمانية والهولندية والنروجية والدنمركية فانها تحسب لغات (لا لهجات) بينما هي في الواقع لهجات والتفاهم بين هذه الجماعات أمر ممكن. والعربية والعبرية والسريانية والحبشية لغات في نظرنا اليها، ولكن التاريخ ينظر اليها انها لهجات تحدرت من ام واحدة. اذن قضية التفاهم لا يمكن ان تكون الفارق بين لهجة ولغة.

وقد يقال لنا أخيرا ان الفارق بين لهجة ولغة هو ان اللهجة تقهقر وانحطاط لغوي من لغة فصحى. وقد وقع في مثل هذا الوهم لغويو العرب قديما وحديثا. فانهم ينظرون الى العامية انها انحطاط وتقهقر. ولكن اثبتت دراسة اللهجات، وبطريقة لا يتسرب اليها الشك، أن اللهجة ليست تقهقرا ولا انحطاطا لغويا linguistic degeneration بل تطوراً وتقدما لغويا فرضتها النواميس الطبيعية التي تتحكم بمصير كل لغة. وأفضل دليل على أن اللهجات ليست انحطاطا لغويا هو كون بعضها سابقا في الزمن للغة الفصحى. خذ مثلا كَسْرَ حرف المضارع في العامية فاننا نقول «يِكْتُب يِشْرَب» ولكن كسْر حرف المضارع (وهو لغة قديمة) سابق في الزمن للفترة التي اعتبرت فيها لغة قريش اللغة الأدبية الفصحى، فكيف يحق لنا ان نعتبر هذه الظاهرة ـ كسر حرف المضارع ـ انحطاطا لغويا؟ ومما لا شك فيه ان لهجة الالمان في سويسرا والمانية الالزاس وورتمبرغ هي أسبق في الزمن من لهجة لوثر التي اعتبرت بعد ترجمة التوراة لغة ألمانيا الفصحى ـ او على الاقل لا علاقة لها بها ـ فكيف يحق

لنا ان نقول ان لهجة سويسرا الالمانية ولهجة الالزاس الالمانية ولهجة الغابة السوداء هي انحطاط لغوي من لغة فصحى ظهرت في التاريخ بعد ظهور تلك ؟

الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن **لا فارق جوهري بين لهجة ولغة** إنما الفارق هو ان لهجة ما، ولسبب خارجي، او لظروف خاصة، تعتبر لغة قومية رسمية، بينما لهجة أخرى، ربما أفضل منها، لا يعترف بها. فلو أن التوراة الالمانية مثلا ترجمت الى لهجة برلين لكانت لهجة برلين الالمانية الفصحى لا لهجة هانوفر. اذن القضية قضية «سلطة عليا» وقضية اعتراف بهذه السلطة. ما هي هذه «السلطة العليا» التي ترفع لهجة ما الى مصاف اللغات القومية الرسمية، والتي تهمل لهجة اخرى فتعتبر لغة رديئة؟

السلطة العليا

ان التاريخ يعج بالامثلة الناطقة على فعل السلطة العليا في رفع لهجة ما الى مرتبة لغة قومية رسمية. كنا نود أن نأخذ بالتفصيل تاريخ كل لغة قومية ونبين كيف ارتقت هذه اللغة من لهجة وضيعة إلى لغة ادبية. ولكن سرد حقائق التاريخ الجافة امر يرهق أكثر القراء، فضلا عن أنّه يقتضينا جهودا نحن بغنى عنها، لان القارىء يستطيع، اذا أحب، ان يراجع تاريخ كل لغة في الموسوعات او في الكتب التي تبحث تاريخ تلك اللغات وآدابها. انما سنكتفي بذكر نبذ عن بعضها ايضاحا لما نحن بصدده.

تكون السلطة العليا في اللغة احد هذه العوامل:

(أ) عامل عسكري ـ سياسي

(ب) عامل ديني

(جـ) عامل ادبي

(د) عامل اجتماعي طبقي

وليس من الضروري ان تكون السلطة العليا عاملا مفرداً، أي مكونا من عامل واحد، بل قد يتداخل عاملان او ثلاثة في تكوين هذه السلطة. وسنمثل لك على كل من هذه العوامل.

(أ) عامل عسكري - سياسي:

وافضل مثال على ذلك اللهجات الروسية: التشكية والبلغارية والصربية. ان هذه لهجات روسية، ولكنها اصبحت لغات رسمية معترفا بها بفضل عامل سياسي أو عسكري - سياسي. فانه عندما استقلت هذه البلدان عن روسيا اصبحت هذه اللهجات الاقليمية لغات قومية ادبية معترفا بها.

ثم اعتبر لغة اسبانيا الادبية. ما هي؟ هي لهجة الطبقة العسكرية التي ابلت في حروبها ضد العرب، ونعني بها الجيوش القشتالية. فقد احتلت قشتالة، بفضل هذه الحروب التي شنتها على العرب، مقاما عسكريا سياسيا في بلادها غير منازع، وأصبحت لهجة قشتالة اللغة الرسمية للبلاد. والناس على دين ملوكهم. ولكنها في الاصل لهجة لاتينية يشوبها بعض عناصر لغوية محلية.

واعتبر كذلك لغة الرومان: اللاتينية. ما هي؟ هي لهجة من عشرات اللهجات التي كان يتكلم بها أهل ايطاليا القدماء قبل ظهور الرومان كامبراطورية عالمية. هي لهجة مدينة روما، وبفضل مركز روما العسكري والسياسي أصبحت لهجة روما لغة الرومان القومية الادبية، وانتشرت في العالم بفضل الانتصارات العسكرية التي احرزها الجيش الروماني.

(ب) عامل ديني:

وافضل مثال على فعل هذا العامل الديني نشوء اللغة الالمانية الفصحى واللغة العربية الفصحى. وجميعنا يعرف شيئا عن تاريخ الحركة الاصلاحية، وكلنا نذكر لوثر وخروجه على الكنيسة الكاثوليكية. فقد ارتأى لوثر بان افضل سلاح يستطيع به ان يحارب الكنيسة هو ترجمة الكتاب المقدس الى لغة الناس ليقرأوه. فان اللاتينية لم تكن لغة الحياة، ولم يستطع الناس ان يقرأوا كتابهم الديني. وبما ان لوثر كان من مدينة هانوفر فانه ترجم التوراة الى لهجة مدينته متحديا بذلك سلطة الكنيسة. وقد اعجب الناس بهذه الترجمة السلسة

القريبة الى عقولهم وقلوبهم، وعلى مر الزمن اعتبرت اللغة الفصحى. ويسميها الالمان لغة المسرح.

وليس لنا أن نعيد على القراء خبر ارتقاء لغتنا العربية الفصحى من لهجة حجازية نجدية الى مرتبة ادبية سامية بفضل نزول القرآن الكريم بها، لان هذا من الامور المعروفة التي لا تحتاج الى تعليق. واللغة العربية مدينة بحياتها وباحتفاظها بشكلها القديم للقرآن.

(جـ) عامل أدبي:

والامثلة على كون السلطة العليا ادبية كثيرة، نخص بالذكر منها اللغة اليونانية الكلاسيكية، لغة افلاطون وأرسطو. فان هذه اللغة كانت اصلاً لهجة اهالي اتيكا في القرن الرابع ق.م. وظلت اللغة الرسمية الى القرن التاسع بعد المسيح. وعندما انتقلت هذه اللهجة الى شواطىء اسيا الصغرى ـ ايونيا ـ اصبحت تعرف باللغة الايونية الرسمية، وهي التي كتب بها هيرودوتس. ان الذي فرض هذه اللهجة هو ما دُوِّن بهذه اللهجة من أدب وعلم وفلسفة.

ومن هذا القبيل لغة ايطاليا الحديثة فانها لهجة فلورنسا، او بالاحرى اللهجة التي كتب بها ونظم بها ادباء وشعراء امثال دانتي وبترارك وبوكاتشيو.

(د) عامل اجتماعي او طبقي:

وأفضل مثال على ذلك اللغة الفرنسية او بالاحرى لغة باريس بعد القرن السابع عشر. فان لهجة باريس (او مجتمع باريس) اصبحت المثال الادبي الرفيع الذي ينبغي لكل كاتب ناشىء ان يحتذيه.

ومن هذا القبيل لغة الانكليز فانها على وجه التدقيق، اللهجة المحكية في المدلندز Midlands وهي مزيج من انكلوسكسوني قديم ولغة النورمان وما اضيف اليها من مصطلحات علمية من لغة الاغريق والرومان، وقد اصبحت

هذه اللهجة لهجة لندن[1] والمجتمع اللندني الراقي. وهي لهجة تعرف بـ « انكليزية الملك » ولا يغرب عن بالنا ايضا اللغة الروسية الادبية فانها لغة اهل موسكو، ذلك لان اديبا نابغا، ليمونوسوف، كتب بها واعجبت كتابته اهل موسكو فاقتدى بها الكتبة والشعراء واصبحت فيما بعد اللغة الروسية الفصحى.

لقد ذكرنا هذه الامثلة لنوضح ان اللهجة تصبح لغة بفضل سلطة عليا تفرضها. وتكون السلطة هذه عسكرية أو دينية او طبقية. اما اليوم فما هي السلطة؟ في كل امة من امم الارض جماعة، وجماعة كبيرة تقول ان السلطة هي للتقليد Tradition هي للسلفية، هي لغة التاريخ، اللغة التي تحدرت الينا بشكل شعر أو نثر وقصص واغان، وكل خروج عن التقليد يعد خروجا على الاجتماع. وأشد ما يكون الناس رجعية هو في نظرهم الى اللغة. ولذا ترى هذه الجماعة السلفية شديدة المحافظة في كل قطر. فمن ذا يجرؤ في انكلترا مثلا ان يكتب Thru بدلا من Through و laf بدلا من laugh ومن يجرؤ في انكلترا - هذا اذا اراد ان يحتفظ بمركزه الاجتماعي الادبي - ان يقول I ain't أو I aren't عوضا عن I am not ؟ وقل مثل هذا في المانيا وفرنسا وفي كل بلد يعتز بلغته ويفخر بأدبه. لا نعتقد ان الفرنسي المعروف بدقة التفكير وحسن المنطق، الفرنسي الذي اعطى العالم النظام المتري، يتنازل يوما عن المعادلة ٤ × ٢٠ + ١١ = ٩١ مستعيضا عنها بوضع لفظ خاص للتسعين فيقول ٩١.

ولكن رغم هذه الرجعية فان علم اللغة لا يعترف بسلطة عليا في اللغة غير سلطة الشعب. السلطة العليا هي الشعب تمشيا مع روح الديمقراطية، التي تتغلغل

---

(١) اما اليوم فان انكليزية لندن لا تعد المقياس الادبي في صفاء اللغة ان كان ذلك من جهة اللفظ ام من جهة التعبير، وذلك لخليط الناس في هذه المدينة. ويجب الا ننسى المنافسة بين مدينة واخرى. فان اهالي اوكسفرد وكمبريدج يعتقدون ان لفظهم هو افضل لفظ وتعبيرهم اصفى وابلغ تعبير.

في جميع نواحي الحياة. اللغة ليست لطبقة ارستقراطية، وليست لغة لبلاط او لقصر او لبرج عاجي او لجماعة من الادباء او الشعراء، انما اللغة للشعب، وما يقوله الشعب هو الصحيح.

كيف تنشأ اللهجة

اما مؤرخو العرب وصرفيوهم فقد أشاروا الى اللهجات العربية إشارات عابرة[1]، ولكنهم لم يحاولوا الاجابة عن السؤال: كيف نشأت؟ فقد تكلم الكسائي، تلميذ الخليل عن لحن العامة (وله في الموضوع كتاب مخطوط) وذكر الجاحظ كثيراً من النوادر اللغوية التي تعكس لحن العامة وعجمة بعض الناس. وتكلم ابن خلدون عن «فساد الكلمة» «ولغة الامصار» وتكلم غيره عن «لغات فاسدة» وعن «الرطانة» «والعجمة». ومنهم من أشار إشارات دقيقة الى لهجات وقرنوها باسماء تميزها: كشكشة أسد، وعنعنة تميم، وطمطانية حمير، وعجعجة قضاعة، وفحفحة هذيل، وقطعة طيء، وغيرها كثير[2]. ولكن أحداً من القدماء لم يدرسها. وعلى دارس اللهجات العربية القديمة ان يبدأ بالاختلافات في القراءات المتبعة في قراءة القرآن، وبجمع النتف الباقية في ثنايا كتب الادب (ملاحظات الجاحظ مثلا) وبجمع الملاحظات المعجمية، ومتى تم جمعها يتبين له ان الفروقات بين هذه اللهجات ليست يسيرة، بل تتناول نواحي لغوية عديدة، على الصعيد الصوتي Phonological level والصرفي النحوي Syntactical والمعجمي Lexical .

---

(١) وقد جمع هذه الاشارات العابرة مستشرق الماني اسمه Johann Fueck في كتاب له نقله الى العربية الدكتور عبد الحليم النجار «العربية، دراسات في اللغة واللهجات والاساليب» القاهرة ١٩٥١ مطبعة دار الكتاب العربي.

(٢) الخصائص لابن جني ص ٤١٠ ـ ٤١٢ وعنه اخذ السيوطي في المزهر ص ٢٢١ ـ ٢٢٦.

وجل ما يفهم من كلامهم ان اللهجات العربية هي انحطاط لغوي Linguistic degeneration . فهم من هذا القبيل ينتمون الى المدرسة التي تقول ان اللهجة انحطاط لغوي. وقد أشرنا سابقا الى فساد هذا الرأي، وقلنا ان علم اللهجات قد اثبت بطريقة لا يتسرب اليها الشك أنه ليس ضروريا ان تكون اللهجة انحطاطا من لغة فصحى، فقد تكون أقدم منها في الزمن، او قد تمثل تطورا وتقدما لا إنحطاطا. ولا يمكن الاخذ بالرأي القائل ان نشوء اللهجات مرده الى خروج العربية من موطنها الاصلي واحتكاكها بلغات اخرى. ولو كان هذا فكيف نعلل نشوء اللهجات في البلاد العربية ذاتها حيث ظلت الفصحى على عزلتها؟ اذن علينا ان نهمل هذا الزعم وان نفتش عن سبب نشؤ اللهجة الحقيقي. ونحن نعتقد ان في مقدمة الاسباب ثلاثة عوامل:

(أ) المغايرة الفردية.

(ب) اتساع الرقعة الجغرافية.

(جـ) احتكاك لغة بلغة اخرى.

(أ) المغايرة الفردية:

لقد اثبت لنا علم اللغة ان لكل انسان لهجته الخاصة، وان هناك لهجات في اللغة بقدر ما هناك من افراد يتكلمون هذه اللغة! وهذه اول مفاجأة يفاجئنا بها علماء اللغة. يقولون لنا ان المجتمع الذي يتكلم افراده لغة واحدة لا وجود له. واذا ابديت شكا في ذلك ادخلوك الى مختبر الفونتيك وقالوا لك اجلس أمام هذه الالة المسجلة وتلفظ بهذه العبارة: ما اجمل الطقس. ثم بعد ربع ساعة يقولون لك تعالَ سجلها لنا مرة اخرى. ثم يتركونك تقابل بين تسجيلك الاول والثاني. وستجد لنفسك فروقا. ولكنها فروق لا تستطيع الاذن تمييزها، انما الآلة تستطيع. واذا اصررت في المعاندة ادخلوك الى غرفة مظلمة وطلبوا من صديقين لك، لا علم لك بوجودهما هناك، ان يتكلما.

فانك تعرف حالا صاحب الصوت هذا هو فلان، وصاحب الصوت ذاك هو فلان. فان هناك تبايناً ظاهراً في اللفظ وفي الشدة واللين والنبرة والنغم وربما في انتقاء المفردات وفي تركيب العبارات.

تعرف هذه الظاهرة في اللغة بالمغايرة الفردية. ولا تظنّن ان هذه المغايرة تعمدية، كأن يكون أحدنا متحذلقا او متشدقا او متحرجا في لفظه، كلا، انما هذه المغايرة الفردية طبيعية عفوية. ولا نعلم السبب في ذلك كما اننا لا نعلم لماذا لا تشبه حبة قمح حبة أخرى في عرمة من القمح. ولا يولد ولد يكون صورة طبق الاصل لابيه او لامه. فكأن الطبيعة تكره الوحدة Uniformity وتميل الى المغايرة. وهذه المغايرة الفردية في اللغة، جيلا بعد جيل، تترك اثرا في اللغة. ونحن على يقين ان العرب الاحياء يقرأون الفصحى على غير ما كان يقرأها الفصحاء في العصر الاموي. اما من جهة التكلم فظاهر ان لساننا العربي اليوم غير لسان العرب في الامس البعيد.

اخالك تقول: اذا، حسب هذا الزعم، تتجزأ اللغة بعد جيل او جيلين الى لهجات لا حصر لها. كلا. ذلك لان هناك، مقابل هذا الميل العفوي الى المغايرة الفردية، ميلا آخر نحو النورم[1]. ولكل لغة نورمها الخاص. فان افراد المجتمع، عن غير وعي، يميلون الى البقاء ضمن نطاق نورم اللغة. قد يكون السبب في ميلنا غير الواعي للبقاء في النورم اللغوي خوفنا من ان نخالف ما عليه الجمهور، او قد يكون لاصلاح الخطأ الذي يحرص الآباء والجيل القديم على ان ينبهوا عليه الجيل الجديد، أو قد يكون خوفا من الهزء والسخرية،

(١) norm وهو النموذج العام، او القياس المشترك المتفق عليه في المجتمع، او العام المألوف او الطابع المميز. مثلا، هناك نورم للهجة اللبنانية التي لها خاصيات عامة مشتركة مألوفة يقبلها اللبناني. وللهجة المصرية نورم خاص وكذلك للهجة العراقية. فانك اذا سمعت لبنانيا او مصريا او عراقيا يتكلم قلت حالا هذا من لبنان وهذا من مصر وذاك من العراق، لان لكل لهجة نورمها الخاص. وسنستعمل لفظة نورم بشكلها الغربي تخلصا من صعوبة الترجمة، او الى ان يتفق العرب على ترجمة لها. ونحن، اذا عجزت اللغة عن الترجمة، فاننا لا نستنكف عن الاقتباس.

او تهربا من ان نرمى بالتحذلق والتشدق والمغايرة لا لسبب سوى ان يقال عنا اننا نختلف عن الآخرين. وقد يكون هناك أسباب بسيكولوجية أخرى لا نعرف لها تعليلا. والأسباب لا تهمنا بقدر ما يهمنا تقرير الواقع وهو ان في كل لغة حية قوتين متضادتين الاولى تدفع بالفرد عن المركز Centrifugal وأخرى تشد به نحو المركز Centripetal. وهذا الشد بالفرد نحو المركز والدفع به عن المركز يخلقان نوعا من التوازن اللغوي الذي يعرف بالنورم. وهذا ما يبقي اللهجة ضمن نطاق معين الى حين، ومما يؤخر عملية التجزؤ السريع.

(ب) اتساع الرقعة الجغرافية:

ذكرنا سابقاً ان للغة مجرى طبيعياً تسير فيه. وقد تحافظ اللغة على اصواتها وعلى صرفها ونحوها وتركيبها زمنا طويلا اذا ظل المجتمع الذي يتكلم هذه اللغة مجتمعا صغيرا قريبا من الموطن الاول، او اذا ظل مترابطا متماسكا متجانسا منكمشا على ذاته، تشد افراده بعضهم الى بعض عوامل اقتصادية وروابط روحية وأمان مشتركة. ولكن هذا لا يعني انه لن يطرأ تغيير ما. كلا. بل يكون التغيير طفيفا وبطيئاً لا يظهر اثره في الحال. اما اذا انحل المجتمع الى مجتمعات بسبب ضعف الروابط التي كانت تربطه سابقاً، أو بسبب فقدانها، فان المجرى يميل الى التشعب والإنقسام، وعندها تظهر الفروقات اللغوية بسرعة ووضوح. ولكن يجب ان نلاحظ ان المهاجرين او النازحين عن أوطانهم الى أوطان جديدة يحتفظون في الوطن الجديد بميزات لغوية قديمة قد تكون اندثرت وتلاشت في الوطن القديم كما حدث في فرنسيّة مونتريال (كندا) فانها تحتفظ بعناصر لغوية تعود الى القرن السابع عشر، وليس لها من وجود في لغة فرنسا الام. وكذلك في برتغالية البرازيل، فان فيها عناصر لغوية قديمة لن تجدها اليوم في لغة البرتغال الام. ونحن نميل الى الاعتقاد بان فقدان الاعراب من لغة الكلام وظواهر لغوية أخرى ككسر حرف المضارع من الامور السابقة للهجرة العربية الى مواطن جديدة، وليس نتيجة العوامل

التي ظهرت بعد الفتح والاحتكاك بأمم جديدة. ان اتساع الرقعة الجغرافية يعمل على تشعب المجرى وتجزئه الى مجار صغيرة مختلفة.

(جـ) احتكاك لغة بلغة اخرى:

عندما تدخل لغة جديدة الى بقعة جغرافية جديدة فانها لا تدخل الى فراغ لغوي. يجب ان يكون هناك قوم او أقوام يتكلمون لغات مختلفة. وفي هذه الحالة يحدث واحد من أمرين: اما ان تتغلب لغة الفاتح فتحتل المرتبة الاولى وتصبح لغة البلاد الرسمية، أو ان تتغلب لغة المغلوبين بفضل تقدمهم في الحضارة، أو بسبب قلة أفراد الجماعة العسكرية المجتاحة. وفي الحالتين يطرأ تغيير في اللغتين سواء أماتت الاولى ام انتصرت الثانية. ان نتيجة هذا الصراع اللغوي الثقافي يظهر في اللغة. وأفضل مثال على هذا احتكاك العربية بالآرامية والايرانية.

بدأ تعرب سوريا قبل الفتح العربي. ولم يكن من الصعب على اللغة العربية، نظراً للتعرب ونظراً للقربى العرقية واللغوية بين الآراميين والعرب، ان تفرض ذاتها بفضل العامل الديني والعسكري. وقد كان احتكاك العرب الثقافي باهل سوريا القدماء قديم العهد يظهر لك ذلك في كثير من المفردات الثقافية والزراعية والدينية التي هي من أصل سرياني[١]. فكان من الطبيعي ان يعتري العربية المحكية تغير كبير في الاصوات والتراكيب والتعابير، سواء أكان المتكلمون من العرب ام من أهل البلاد. اثر السريانية ظاهر في عربية سوريا ولبنان المحكية وهذا امر طبيعي. فعندما يقول اللبنانيّ او السوري او العراقي: «شفتو لاخوك أو لخيك» فانهم يتكلمون لهجة مفرداتها عربية ولكن تراكيبها سريانية فصيحة. هكذا يجب ان يقال في السريانية. فكأنه يصعب على الناس ان ينسوا نسيانا تاما ما يسميه علماء اللغة نماذج لغوية Speech

(١) راجع كتاب Siegmund Frankel: Die aramaischen Fremd worter in Arab schen, Leiden 1886.

patterns. وعندما يقول بعض اللبنانيين ena (أنا) فانما يلفظون الضمير السرياني لا العربي. وقد نبه أكثر من مستشرق الى اثر السريانية في اللهجة اللبنانية السورية العراقية (موطن الآرامية القديمة) نخص بالذكر منهم العالم اللبناني المنسنيور فغالي الذي كان استاذ اللغات السامية في جامعة بوردو في فرنسا. وفي كتبهم ما يغنينا عن الاسهاب[1].

اما احتكاك العربية بالايرانية فلم يكن له من اثر في التركيب نسبة لاختلاف العائلتين اللتين تنتسبان اليها. ولكن التفاعل الحضاري بين فارس والعربية ظهر في المقتبسات من المفردات التي تدل على نوعية التفاعل. فان العربية مثلا اقتبست كلمات عديدة لها علاقة بالمطبخ وفن الطبخ، وبالمنزل وأثاثه، وبالدواوين الحكومية ومصطلحاتها، وبالنظام الاقتصادي والعسكري. وكذلك أخذت الفارسية عن العربية أكثر مما اعطتها، فان الفارسية تعج بالمفردات العربية الدينية والفلسفية والصرفية والنحوية، غير أنه لا اثر لتفاعل لغوي في التركيب (الصرف والنحو).

• • •

(١) راجع كتاب Mgr. Michel Feghale: Syntaxe des parlers arabes actuels du Liban, 1923, Paris.

قد لا ترضى عن هذه الأسباب التي تعمل على نشوء اللهجة: المغايرة الفردية، واتساع الرقعة الجغرافية، واحتكاك لغة باخرى. فقد تقول، مثلا، أليست العناصر الانسانية في التغيير اللغوي اشد فعلا من العناصر الخارجية: الطبيعية والجغرافية؟ أو ليست هذه العوامل انسانية أي ان مردها الأخير للانسان؟

ان علماء اللغة يسلمون بان للطبيعة أثرا في اللغة: المناخ والطوبغرافيا والطعام وخلافها. ولكن هذا الأثر طفيف ويظهر في المفردات لا في التركيب، واللغة بتركيبها. ولذلك ترى ان علماء اللغة يميلون الى تعليل التغيير اللغوي عن طريق العنصر الانساني. هنالك نواميس لغوية تتحكم بمصير اللغة، ولكن هذه النواميس - إذا صح ان نسميها نواميس - مردها في آخر الامر الى الانسان ذاته. هذه النواميس اللغوية هي: -

(أ) تغييرات في لفظ الحروف المصوّتة (الحركات).

(ب) تغييرات في لفظ الحروف الصامتة.

(جـ) تغييرات في المفردات من جهة المبنى والمعنى.

(د) تغييرات في التركيب.

ويحسن بنا ان نأخذ كلا منها بشيء من الاسهاب.

(أ) تغييرات في لفظ الحروف المصوّتة (الحركات):

والحروف المصوتة اكثر الفونيات تعرضاً للتغير، وهذا التغير يضفي على اللهجة المحكية مسحة تجعلها مغايرة تمام المغايرة للغة الأدبية. الا ترى الفرق العظيم بين حركات اللغة العربية المحكية، وبين حركات العربية الفصحى كما يجب ان تكون عليه عند قراءتك قراءة فصيحة؟ ان حركات العربية الاصلية ثلاث، قصيرة وهي a i u، وتمثلها الفتحة والكسرة والضمة، وطويلة اذا تبعها الف وياء وواو فتصبح، â î û. ولكن الحركات في العربية المحكية أكثر من ثلاث. فانه فضلا عن هذه فان هناك حركات مغايرة للفصحى: e ê ôy êy o ô وربما غيرها كثير. ثم اعتبر لفظ المقطعين ـَوْ aw كما في يوم وَ يَيْ كما في بيت، فانهما في أكثر اللهجات العامية اصبحا ô و ê كما في yôm و bêt. واعتبر كذلك اختلاس حركة واطالة حركة اخرى خلافا لما هي عليه في الفصحى. ففي الفصحى نقول اكتب وفي العامية «كتوب» وفي الفصحى نقول قم وفي العامية «قوم». وهل سمعت اناسا يلفظون الـ â ô؟ أصغ الى اهل الكورة يقولون «طروبلس وجوهل وعوقل» بدلا من طرابلس وجاهل وعاقل.

وهناك قضية لم يعطها لغويو العرب حقها من العناية، حتى انهم لم يضعوا لها لفظا خاصا بها، ونعني قضية النبرة accent وأثرها في الحركة من حيث الطول والقصر. فمن قوانين التركيب المقطعي للكلمة syllabic structure انه اذا كانت الكلمة مركبة من مقطعين الاخير منهما طويل الحركة، ووقعت النبرة على المقطع الاول فان المقطع الثاني الطويل يصبح قصير الحركة كما حدث في لفظ كلمة Friday المركبة من مقطعين Frai-day (الأخير طويل الحركة). ولكن النبرة على المقطع الاول ولذلك اختلست حركة المقطع الاخير فاصبح قصيرا، ولذا يلفظها الانكليز Fraidi. ويقول اللبناني «كتوب» ولكنه يقول «كتب لو».

ان حركات اللغة تنتقل من جيل الى جيل بالتقليد. ولكن مهما حرصنا

على ان يقلد الجيل الجديد الجيل القديم تقليدا تاما في لفظ الحركات وفي النبرة فان هذه تظل عرضة للتغيير. وسبب التغيير هو العنصر الانساني: الشذوذ، الفردية، المغايرة، الكسل، او أمور انسانية اخرى نجهلها[١].

(ب) تغييرات في لفظ الحروف الصامتة

ويطرأ تغيير في لفظ الحروف الصامتة. فان حروف الثاء ـ خلا في مجتمعات عربية قليلة كالمجتمع الدرزي في لبنان ـ فقد قيمته اللفظية الاولى th وأصبح تاء، وفي بعض كلمات سيناً كما في «حيس وبحيس» عوضا عن حيث. وأصبحت القاف همزة في بعض الأوساط، وجيما مصرية في اوساط أخرى، وقسم من أهالي بيروت يلفظونها كافاً. وقد استبدل حرف الذال بالدال وبالزاي فيقال «كزاب» «وكداب». ويقولون «زلك والزي» عوضا عن ذلك والذي. والعراقي لا يفرق حتى في الفصحى، بين ض و ظ.

لماذا تحدث هذه التغيرات؟ ما الاسباب؟ هل لان حرفا اسهل من آخر؟ هل للبيئة من اثر، أم هو العنصر الانساني الذي ذكرناه سابقا؟

ان علماء اللغة اليوم لا يهمهم تعليل الأسباب بقدر ما يهمهم وصف الواقع. فاننا نعرف مثلا قانونا صوتيا في اللغات السامية لا يتغير وهو ان الثاء العربية يقابلها حرف الشين في العبرية والتاء في السريانية فيقال:

ثاب (عربي) (شاب عبراني) تاب[٢] (سرياني).

لماذا؟ لا نعرف ونلاحظ كذلك في اللغات الهندوجرمانية قوانين صوتية[٣]

---

(١) بعض المدارس اللغوية الحديثة، مثل مدرسة جامعة لندن، ترفض رفضا باتا الدخول في «لماذا؟» «ولاي سبب؟» و«ما هو التعليل» يقولون ان عمل عالم اللغة هو وصف ما يجري او وصف ما هو واقع وليس له ان يفسر. هؤلاء يعرفون بالوصفيين descriptivists وعذرهم في ذلك اننا لا نعلم لماذا يحدث التغير.

(٢) اذن تاب الى ربه توبة ليس عربيا بل سريانيا. يجب ان يكون في العربيةثاب.

(٣) كالقوانين التي وضعها العالم الالماني Grimm وتعرف بقانون Grimm.

ثابتة. مثلا نلاحظ ان الكلمات الانكليزية التي تبدأ بحرف f يقابلها في اللاتينية او الاغريقية كلمات تبدأ بـ P ، فيقال:

father: Pater

five: Pente

لماذا؟ لا نعرف. إنما يهمنا تقرير الواقع وهو ان الاحرف الصامتة، كالاحرف المصوتة، عرضة للتغير.

(جـ) تغييرات في المفردات من جهة المبنى والمعنى:

اما في المبنى فيكون التغير نتيجة قلب مثل «اجا» بدلا من جاء «وفحر ووعق» عوضا عن حفر ووقع. او نتيجة زيادة مثل رجّال بدلا من رجل، او نقصان مثل مرة عوضا عن امرأة او نتيجة نحت مثل «جاب» المنحوتة من جاءب «واصطفل» المنحوتة من اصطف ل.

ويحدث تغيير في معنى المفردات. وهذا أمر معروف. فإنك اذا اخذت المعجم العربي - مثل لسان العرب - وراجعت بعض المفردات لأخذك العجب من بعد الشقة بين مفهومها الآن وبين مفهومها في الصدر الاول. اعتبر مثلا لفظ الباخرة والقاطرة والجريدة والمذياع والهاتف والسيارة والمحرك والتيار.... الخ فانها وضعت لمعان تختلف عن معانيها الآن. وما يؤسف له ان قاموسنا العربي لا يؤرخ لنا معنى الكلمات، اي تطور المعنى على مر العصور كما يفعل القاموس العصري للغة العصرية كقاموس اكسفرد للغة الإنكليزية. فانك اذا فتشت فيه عن معنى كلمة بسيطة مثل nice لوجدت ان هذه اللفظة مرت في اطوار عديدة وفي كل طور كان لها معنى يختلف قليلا، وأحيانا كثيرا، عن المعنى السابق.

(د) تغييرات في التركيب:

وأكثرها راجع لفقدان الاعراب. اذ من المعلوم ان في اللغات المعربة تدل علامات الاعراب على وظيفة الكلمة في الجملة بقطع النظر عن موقعها. وقد يكون منشأ الاعراب حرية التصرف في تركيب الكلمات، اي تمكين المتكلم والناظم والمغني من ان يغير مركز الكلمات في الجملة على ان تقرن الكلمات بعلامات فارقة تدل على الوظيفة التي تقوم بها في الجملة. وذلك لأن العلاقة بين اجزاء الكلمة، في ابسط تركيبها، كانت تظهر في الترتيب، اي الفاعل اولا ثم الفعل ثم المفعول به. ولكن اذا اردنا، لسبب ما، ان نغير الترتيب وجب علينا ان نوجد علامات فارقة لاجزاء الكلمة لتدل على وظيفتها في الجملة. ففي العربية، وهي لغة معربة. نجد آيات كهذه:

﴿إنما يخشى الله مِنْ عبادِهِ العلَماءُ﴾[1]
﴿ان اللهَ بريءٌ من المُشْرِكِينَ ورسولُه﴾[2]
﴿واذ ابتلى ابراهيمَ ربُّه﴾[3]

وفي جميعها، وفي امثالها، يتوقف فهم المعنى على علامات الاعراب. وعليه فليس من الضروري ان نحافظ على ترتيب موقع الكلمات. اذ قد يأتي الفاعل في آخر الجملة والمفعول به في اولها. ولكن اذا سقط الاعراب وجب التعويض عن فقدانه، ويكون التعويض ابدا في تغيير التركيب، اي بتغيير موقع الكلمة في الجملة. ففي الاولى، اذا اراد رجل ان يضعها بلغته كي يفهمها ولده الصغير، يجب ان يكون التركيب على هذا النحو: العلماء، من بين العباد، يخشون الله. وكذلك في عبارة أخبر خالد أمينا.... فانه اذا سقط الاعراب يصعب علينا ان نميز بين المخبِر والمخبَر. ولكن في العامية حلت المشكلة بتقديم الفاعل ابدا فنقول «خالد أخبر أمين».

---

(١) (سورة فاطر، الآية ٢٨).

(٢) (سورة التوبة، الآية ٣).

(٣) سورة البقرة، الآية ١٢٤).

ان اللغة، كجسم حي، تخضع للنواميس الطبيعية من حياة ونمو وتغير وموت. وهي شأن كل ظاهرة طبيعية تتبع في جريانها الجهة التي تلقى فيها اقل مقاومة ممكنة (line of least resistance) واللغة كظاهرة انسانية تميل الى الاقتصاد، بكلام آخر، نستطيع ان نعمم القول بان اللغة في جريانها تسير:

من الصعب الى السهل

من الخشن الى الناعم

من المعقد الى الميسر

من المزخرف الى البسيط

ولذا تنشأ على ممر الاجيال لهجات مخالفة للغة الادبية التي نوقف سيرها الطبيعي بوساطة سياج شائك من الاحكام والضوابط. ونرغب في ختام حديثنا عن نشأة اللهجة ان نؤكد مرة اخرى ان اللهجة ليست انحطاطا لغويا كما يظن، بل تطورا ونموا ومسايرة للحياة.

العامية لغة قائمة بذاتها، حية متطورة

ان تعريفنا العامية بانها لغة قائمة بذاتها حية متطورة نامية، كما يبدو في العنوان لن يرضي المجموع الاكبر منا. لاننا اعتدنا ان ننظر الى العامية انها لغة رديئة فاسدة تتميز باللحن والرطانة والعجمة، فلا يمكن ان تكون حية متطورة نامية، بل انها تمثل انحطاطا لغويا، تمثل الموت في اللغة لا الحياة. عندما انعقد مؤتمر الادباء العرب في بيت مري (ايلول ١٩٥٤) واثيرت قضية ازدواج اللغة واثرها في الادب، برزت هذه النظرة ـ ان العامية، ليست لغة بل لهجة فاسدةـ احسن بروز. فانبرى الخطباء يدافعون عن الفصحى بمهاجمة العامية، ووجه المهاجمة انها ليست لغة بل لهجة تتجسد فيها الركاكة والرطانة. وقد اتيح لي ان اتحدث للناس، بواسطة الاذاعة، عن قضية ازدواج اللغة وأثرها في الفكر والتربية والاخلاق، فانبرى صديق لي، الاستاذ زكي النقاش يسفه الرأي. قال حفظه الله: ـ ... وحضرته اي (انيس فريحه) احق منا ومنكم ان يعلم ان العامية لهجة وليست لغة، اذ ليس لها صرف ولا نحو، وانها في الحقيقة وليدة الجهل والتخلف...[1] المؤتمرون الادباء في بيت مري وحضرة الاستاذ زكي النقاش في الآداب انما يمثلون الفكرة الخاطئة الشائعة عند العرب: العامية ليست لغة بل لهجة رديئة. ولذا سنحاول في هذا الفصل ان نثبت اولا ان العامية لغة قائمة بذاتها، ثانيا انها لغة حية متطورة نامية

---

(١) مجلة الاداب البيروتية، العدد ١١، السنة الثانية، ص٧٨.

تتميز بجميع الصفات التي تجعل منها اداة طيعة للفهم والإفهام، وللتعبير عن دواخل النفس.

العامية لغة قائمة بذاتها:

ان الفروق اللغوية بين العامية والفصحى التي ينظر اليها الناس انها فروق طفيفة جزئية، او إنحراف بسيط عن الفصحى، هي، من جهة نظر علم اللغة، فروق أساسية جوهرية تبرر اعتبار العامية لغة قائمة بذاتها، سواء أكان هذا في النظام الصوتي ام التركيبي ام الصرفي ام النحوي أم في المفردات والتوليد والاقتباس والقياس[1]. وسبب الخطأ في الزعم ان العامية والفصحى لغة واحدة راجع الى سهولة الانتقال من العامية الى الفصحى عند عامة المتأدبين الذين قضوا الشطر الاكبر من حياتهم في اتقان العربية قواعدها وشواذها. فاذا قلت لاديب، أو لرجل قيض له ان يتم دراسته الثانوية (وليس قبل هذا) ان يغير الجملة العامية التالية: «مْبارح رحت للسوق واشتريت كيلو عنب بخمستعشر قرش أو ارش،» الى شكلها الصحيح كما تتطلبه قواعد الفصحى لاجابك على الفور: ذهبت أمس الى السوق واشتريت رطلا عنبا بخمسة عشر غرشاً. الامر بسيط، وبسيط جداً! ولكن الخطأ هو في اننا ننظر الى اللغة بمنظارنا نحن لا بمنظار الصغير الذي لا يعرفها، او بمنظار الاجنبي عنها. الصغير والاجنبي كلاهما يريان في الفصحى لغة اخرى مغايرة لها تمام المغايرة. اما نحن لاننا نستطيع ان ننتقل بيسر من العامية الى الفصحى ومن الفصحى الى العامية، فقد ننسى ان عملية الانتقال لا تتم الا بعد ان نكون قد قضينا سنوات عديدة في تعلم احكام الفصحى.

لنأخذ ولدا في المدرسة يحاول ان ينقل هذه الجملة ذاتها من العامية الى الفصحى. ولنسايره في عملية التغيير. ولن نحدثك عن الاختلاف الظاهر في

(١) وقد نبه الى هذا الامر ابن خلدون فانه شعر ان لغة العرب في عهده ليست العربية الفصحى بل لغة مغايرة لها. المقدمة ـ طبعة بيروت ص٥٠٨ ـ ٥١١.

نطق الحروف المصوتة في العامية والفصحى بل نكتفي بذكر الفروق الصرفية والنحوية والمعجمية.

١ً ـ على هذا الولد ان يعرف أن ـ راح ـ هذا الفعل الفصيح المسكين المغضوب عليه لا يستعمل في اللغة الكتابية لان الفصحى لسبب لست أعلمه رضيت عن «ذهب» ونقمت على «راح» فنبذته. فلا يقال رحت الى السوق بل ذهبت. والتاء في آخر الفعل يجب ان تكون مضمومة. عليه ان يتعلم هذا في المدرسة.

٢ً ـ عليه ان يتعلم ان ـ مبارح كلمة عامية، والعامي قبيح رديء، يجب ان نستعمل كلمة أشرف أو اجمل او الطف منها، وهي كلمة «امس». وقد يسألنا هذا الولد عدة أسئلة عن هذه الكلمة فيقول لنا مثلا لماذا هذه الكسرة في آخرها؟ وقد يسألنا وما الاعتراض على لفظة «مبارح» فانها فصيحة، فصيحة بالنسبة للهجة من قال «ليس من امبر الصيام في السفر» بتغيير لام التعريف الى ميم، فان البارح أصبح «مبارح» ولكن معلم الولد، تحت ضغط الرأي العام، يقول له لا تستعمل هذه اللفظة بل استبدلها بامس، ولا تنس انها مكسورة! وبما ان اجوبته لا تقنع الولد فانه يتقبل ما يقوله المعلم له ويسكت على ضيم.

٣ً ـ عليه ان يتعلم ان الفصحى تفضل «الى» وليس «ل» التي هي في الأصل الى، وعليه ان يتعلم انها تجر الاسم بعدها (وليس دائما!) ولان لفظة سوق معرفة بأل فانها لا تنون. ثم انه يسأل ما معنى الجر ـ والجر عنده السحب ـ ويسأل عن التنوين فيقال له هو نون ساكنة في آخر الاسم فيلتفت ليرى النون الساكنة فلا يراها بل يجد مكانها ـٌ ـً ـٍ! ويسأل هذا الولد عن التنوين وعن طريقة كتابته وعن الحكمة فيه. وقد يقال له انه نوع من التنكير، او اعذار اخرى، ولكني متأكد أن كل ولد يتقبل هذه على ضيم لانه لا يدرك هذه الفلسفة اللغوية المغايرة للغة الحياة، فيسكت على ضيم.

٤ً ـ وعليه ان ينتظر طويلا الى ان يكبر، الى ان يصبح له من العمر ١٣ او ١٤ او ١٥ سنة حتى يتعلم قوانين التمييز، لان هذا الموضوع الصرفي لا يعلم في السنوات الاولى. عندما تعلمت قوانين التمييز وفهمتها حقا كنت في سن الشباب، اذن لا يستطيع الولد ان يغير «رطل عنب» الى رطلا عنبا. ولكن قد يرأف به الاستاذ فيقول له: لا بأس من ان تقول «رطل عنب» على سبيل الاضافة، فيشكره على هذا الرفق به.

٥ً ـ وعليه ان يتعلم قوانين العدد المعقدة التي تظهر العربية الفصحى فيها على اقبح ما يكون من التعقيد اللغوي. انني متيقن من ان ٩٥٪ من العرب المتأدبين عندما يأتون الى ذكر العدد كتابة او خطابة عليهم ان يقفوا قليلا ليعيدوا القاعدة: هل هذا مذكر ام مؤنث، هل هذا معرب ام مبني: هل هذا مفرد ام مركب، هـل المعدود منصوب ام مضاف اليه... الخ. ويشهد الله انني انا الذي قضيت شطرا من حياتي في تدريس العربية توقفت قليلا عندما نقلت جلة «مبارح رحت للسوق واشتريت رطل عنب بخمستعشر قرش» الى الفصحى. هل هي خمسَ او خمسةً أو خمسةٍ، عشرَ أو عشْر او عشرةٍ، وبعد هذا التفكير نقع في الخطأ الذي نحاول تجنبه!! وقد يسأل هذا الولد عن سبب التعقيد، ولكن الاستاذ لن يستطيع ان يفسر له هذه الظاهـرة لانها ترجع الى عصور سحيقة في القدم عندما لم يكن هناك منطق ولا قياس.

٦ً ـ واخيراً عليه ان يتعلم احكام المعدود ـ ايكون مفردا ام جمعاً، منصوبا ام مجرورا. وقد يجد له الاستاذ تعليلا. ولكنه يتقبل الامر ويسكت على ضيم.

بعد هذا لنا ان نسأل القارئ: هل الفروق بين العامية والفصحى طفيفة جزئية لا اهمية لها؟ قد يشار الى المفردات في اللغتين، العامية والفصحى، على انها مشتركة بينهما. هذا حق، ولكننا نريد القارئ ان يدرك حقيقة لغوية لا يتناطح فيها كبشا ماعز:

ليست اللغة مجموعة كلمات. تستطيع ان تتعلم مفردات القاموس الالماني أو قاموس اكسفرد او لاروس ولكنك لن تستطيع ان تطلب الى خادم في برلين او لندن أو باريس ان يأتيك بقدح ماء او رغيف خبز، لان اللغة بتركيبها. التركيب جوهر اللغة، وتركيب العامية يختلف في نواح عديدة، فهما لغتان لا لغة واحدة.

ثم ان هناك دليلاً آخر على ان العامية لغة قائمة بذاتها وهو الدليل البسيكولوجي. يشعر عامة العرب ان لغتهم هي اللغة المحكية وان الفصحى لغة رسمية. فهم لا يشعرون انها جزء من حياتهم بل انهم اذا تكلموا او صلوا او غنوا او غضبوا او شتموا فان اللغة التي يعبرون بها عن هذا كله انما هي العامية.

هذا فيما يتعلق بعامة الناس، ولكن ما قولك بخاصتهم؟ اذا طلب الينا ان نلقي كلمة في موقف رسمي او أن نحاضر. أو ان نذيع كلمة، الا ترى اننا نعيد كتابة ما نكتبه مرات، ونعيد قراءته مرات، وقد يكون بيدنا قلم أحمر «للرتوش» فهنا عبارة لا يرضى عنها زيد، وهناك كلمة قد يحتج على استعمالها عمرو، هنا ضمة بدلا من فتحة، وهنا كسرة بدلا من ضمة، وقد نشعر بشيء من الطمأنينة اذا استشرنا زميلا او طلبنا اليه ان «يحركها»! كل هذا لان الفصحى ليست لغة الحياة.

قد تقول: في العالم كله عندما يقف الواحد موقفا رسميا يحتاج الى «روتشة» لغته. هذا صحيح، ولكن الفرق بين عامية الانكليزية والافرنسية وفصحى الانكليزية والافرنسية لا يقاس بالفرق الشاسع بين عاميتنا وفصحانا. نحن لا نعتقد ان هناك وجها للمقارنة.

العامية لغة حية متطورة:

في كل امة مدرستان لغويتان: الواحدة تنظر الى اللغة المحكيـة انها انحطـاط لغوي، وان اللغة الادبية هي الفصحى. وتحاول هذه المدرسة فرض هذه الفصحى، بشكلها الذي وصلت به الى الناطقين بها من نقطة معينة في الزمان والمكان، على مجتمع بعد عن هذه النقطة، أو قل على مجتمع يسير مع الحياة فهو لا يعرف الجمود. والمدرسة الثانية تنظر الى اللغة المحكية انها نتيجة محتمة لمجرى اللغة او اتجاهها. فالعامية عندهم تمثل تطوراً طبيعيا وتطوراً نحو الافضل والاسهل، لا انحطاطا وتقهقرا كما يخيل لاتباع المدرسة الاولى. ونحن ندلل لك على صحة دعوانا ـ ان العامية حية نامية متطورة ـ بذكر بعض الظواهر اللغوية التي نحسبها تقدما وتطوراً:

اولا: فقدان الاعراب

والاعراب لا يتلاءم والحضارة. نحن نرى في الاعراب، الاعراب في اية لغة، بقية من البداوة. قد يساعد الاعراب على الفهم ومنع الالتباس ولا سيما في المواضع التي فيها تقديم وتأخير في مرتبة المفردات كما يقع في الشعر والنثر الفني، ولكن حكمه في ذلك حكم اية قرينة اخرى تساعد على الفهم.

ولا تعجبن فاننا لسنا اول من قال بان الاعراب زخرف لا قيمة له في الفهم والإفهام. اقرأ في مقدمة ابن خلدون[١] ص ٥٠٨ ـ ٥١١ واقرأ مقدمة ابن قزمان الاندلسي[٢] تجد ان النقمة على الاعراب قديمة العهد.

ان فقدان الاعراب ليس انحطاطا بل تطورا مع الحياة. وهـا هم العرب نراهم قد اسقطوا الاعراب منذ الصدر الاول. وان صح الخبر عن ابي بكر

(١) طبعة بيروت، المطبعة الادبية، ١٨٧٩، وموضوع الفصل التاسع والثلاثون: في ان لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير. والفصل الاربعون في ان لغة اهل الحضر والامصار لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر.

(٢) لديوان ابن قزمان نسخة خطية وحيدة في لنينغراد. وفي الجامعة الاميركية نسخة فوتوغرافية عنها. يحمل ابن قزمان في مقدمة الديوان حملة شعواء على الاعراب.

انه كان يقول: « لان اقرأ فاسقط احب الي من ان اقرأ فالحن »[1] وان صح الخبر عن رجل قرأ القرآن في حضرة النبي فلحن فقال « ارشدوا اخاكم » واذا صح ان عمر بن الخطاب كان يضرب اولاده على اللحن ولا يضربهم على الخطأ، فانه يمكن اتخاذ هذه دليلا على ان الاعراب لم يكن متمكنا في لغة الناس قبل ظهور الدعوة. ويروى عن الرسول انه قال « اعربوا القرآن ». ولا تظنن ان الناس اسقطوا الاعراب تعمدا، او خروجا على نورم اللغة، او مشاغبة، او شعوبية، كلا، انما سقط الاعراب من تلقاء ذاته، كما سقط في سائر اللغات السامية وغير السامية **لان ليس له قيمة بقائية** Survival value. ونحن نذهب الى ابعد ما ذهب اليه لغويو العرب فنقول ان اسقاط الاعراب من لغة الناس المحكية سبق نزول القرآن الكريم، غير ان القرآن الكريم نزل بلغة الأدب والشعر والدين لذلك العصر، ومن الطبيعي، لا بل من الضروري، ان ينزل بلغة الادب والشعر والدين[2] ونعتقد ان المجتمع

---

(١) نقول ان، ونخط تحتها، لان الحديث ينسب الى كثيرين. فانه ينسب الى الشعبي، راجع « الارشاد » الجزء الاول ص٢٦. والغريب ان الفراء يروي حديثا عن ابي بكر يناقض الحديث السابق الذي نحن بصدده « وقال ابو بكر الصديق رحمه الله ان اعراب القرآن لأحبُّ لي من حفظ بعض حروفه » راجع: Paul E. Kahle: Cairo Geniza p. 116 (London 1947)

(٦) يعتقد بعض المستشرقين ان لغة القرآن مبنية على قوانين اللغة العربية النجدية البدوية كما تتراءى لنا في الشعر، وان قواعدالاعراب وضعت في القرن الثاني، وقد جاهر بهذه النظرية مستشرق الماني عام ١٩٠٥ في مؤتمر الاستشراق الذي عقد في الجزائر، واسمه كارل فولرز. ثم انه وضع نظريته هذه، بعد تعزيزها بشواهد من القرآن ومن القراءات، في كتاب معروف: Volkssprache und Schriftsprache im alten Arabien (Strassburg 1906)
وقد رد عليه شيخ المستشرقين ثيودور نولدكه في
Neue Beitrage zur semitischen Sprachwisswnschait p. 1 ff (Strassburg 1910)
ويحسن بمن يهمه هذا الامر ان يقرأ في: Paule E. Kahle (1) The Cairo Geniza, pp. 78-84
والنص العربي المعزو الى الفراء ص ١١٥ ـ ١١٦ (2) The Arabic Readers of the Koran
(Journal of Near Eastern Studies, 8. April 1949, pp. 65-71.

(3) The Qur'an and the Arabiya (Goldziher's memorial pp. 163-182).

الاسلامي الاول، نسبة لاعجابه بهذه اللغة ونسبة لمقام القرآن الكريم في نفوسهم، جهدوا ان يجعلوا من هذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم لغة الناس اليومية. يدلك على ذلك مبلغ الجهد الذي انفق في سبيل ضبط احكام هذه اللغة، وفي محاربة اللحن، وفي اصرار المقامات العليا على ان تكون هذه اللغة لغة الدواوين والكتاب والمنشئين. ووضع سياج حول اللغة للحفاظ عليها امر طبيعي، لا بل ضرورة، لكل امة ناشئة. الدولة الناشئة بحاجة الى لغة قومية، لان اللغة القومية من مقومات الامة كالشعب والبقعة الجغرافية والدين والى ما هنالك من مقومات.

ونحن لا نعترض على الحفاظ على لغة كلاسيكية لما فيها من كنوز، إنما نعترض على فرض لغة تاريخية على جيل بعدت حياة الناس فيه عن ذلك الجيل، ونعترض على المبدأ القائل بان قوانين اللغة من صرف ونحو وأساليب، لا تتغير ولا تتبدل «كشريعة مادي وفارس» وذلك لان اللغة تتغير، شئنا ام أبينا.

ان كثيراً من اللغات الكلاسيكية كانت معربة كاللاتينية والاغريقية والسنسكريتية. ويظهر ان الاعراب ميزة من مميزات اللغات القديمة. ولكننا اذا اخذنا اللغة عامة وجدنا ان الميل هو لاسقاط الاعراب. فمن اللغات السامية لا نجد لغة معربة سوى العربية الفصحى. قد تجد في هذه اللغة او تلك بقايا اعراب ولكن تستطيع ان تعمم القول في ان اللغات السامية (باستثناء العربية الفصحى لا المحكية) اسقطت الاعراب. وكذلك اسقطت اللهجات التي تحدرت من اللاتينية كثيرا من الظواهر الاعرابية، وبقاء الاعراب فى بعض اللغات الاوروبية ليس دليلا على قيمة البقائية انما هو دليل على الرجعية في اللغة. وها هي الانكليزية، التي لم يبق للاعراب فيها من اثر كبير، تعبر عن الفكر والعلم والفن بيسر، ولو ان للاعراب ضرورة للفهم والافهام لبقي ولحافظت عليه جميع اللغات التي كانت معربة، ولكن

لكونه غير ضروري سقط. وقد جارت العربية المحكية سائر اللغات في مجراها الطبيعي. فهي من هذه الناحية حية نامية متطورة.

ثانيا: التطور الصرفي والنحوي

ليس لنا ان نعيد هنا ما قلناه آنفا من ان العامية لغة مغايرة للفصحى في صرفها ونحوها وتركيبها ومفرداتها وبيانها.

ولا يسعنا في هذا المقام تعداد الفروقات البينة بين صرف العامية ونحوها وبين صرف الفصحى ونحوها[١]. انما نريد ان نؤكد ان صرف العامية ونحوها يمثلان تطوراً وتقدماً. فاقتصار العربية المحكية على عدد قليل من الضمائر، وتصريف الفعل، واستعمال اسمي الفاعل والمفعول وصوغ المجهول واهمال حروف كثيرة والاستعاضة عنها بعدد اقل وغيرها كثير، جميع هذه في نظرنا تمثل تطورا طبيعيا في اللغة وتقدما يتمشى مع الحياة. وليس على المرء الذي يشك في هذا الزعم الا ان يطالع بعض ما كتب في اللهجات العربية المختلفة ليرى ان العامية لغة مستقلة لها صرفها ونحوها وأساليبها[٢].

ونود ان نمثل على ذلك بناحية واحدة هي **فكرة الزمن في الفعل**. ان الذين درسوا اللغات السامية عامة وقابلوها باللغات الاوروبية شعروا ـ ولا يمكنهم الا ان يشعروا ـ ان فكرة الزمن في الفعل السامي غير محدَّدة تحديدا دقيقا كما هي الحال في اللغات الهندو ـ اوربية. ففي الساميات ترتكز فكرة

(١) من يعتقد ان العامية لا صرف لها ولا نحو فليراجع كتاب المنسنيور ميشال فغالي استاذ اللغات السامية في جامعة بوردو

Syntaxe des parles arabes actuels du Liban, paris 1923

(٢) اكثر المؤلفين من الفرنجة: المان وافرنسيين وانكليز وايطاليين واوربيين ومن جنسيات غيرها ونستطيع ان نقول ان جل اللهجات العامية قد درست ودون صرفها ونحوها وأساليب التعبير فيها.

الزمن عامة على انجاز الفعل او اتمام الحدوث لا على فكرة الزمن ذاته. فان كان الفعل او الحدوث قد تم فهو ماض وان لم يكن قد تم فهو حاضر. ولم تعرف اللغات السامية غير هذين الزمنين باستثناء العربية (التي هي احدثها تاريخا وادبا) فانها استطاعت، بفضل افعال مساعدة وحروف، ان تتصرف بفكرة الزمن تصرفا افضل من بقية اللغات السامية. ولكن رغم هذا فان تحديد الزمن في اللغات السامية يقصر عما هو عليه في الانكليزية او الفرنسية أو الالمانية.

ولكن العامية، التي لم تخضع لاحكام الصرفيين والنحويين بل جرت على السنة المتكلمين بها جريانها الطبيعي المحتم، استطاعت ان تعبر عن الزمن وان تحدده تحديدا دقيقا. فان الذين درسوا اللهجات العربية لاحظوا ان جميع صيغ الازمان الاوروبية لها مماثلها في صيغ الازمان في العامية العربية، وليس ذلك نقلا واقتباسا عن الفرنج انما مرده الى طبيعة الانسان عامة والى المشترك في تفكيره وتصوره[1].

ثالثا: خضوع العامية لنواميس لغوية طبيعية

ودليلنا الثالث على حيوية العامية وتطورها مع الحياة هو انها، شأن كل لغة اخرى، تخضع لنواميس لغوية طبيعية، بينما نجد ان الفصحى نسبة للسياج الذي احيطت به، لا تخضع لفعل هذه النواميس. ولكن لغة الناس اذا افلتت من النطاق سرت مسراها الطبيعي واتجهت اتجاهها المحتوم.

من هذه النواميس اللغوية الطبيعية ـ ولن نذكر لك جميعها، لان هذا يقتضينا الخروج عن الموضوع ـ ناموس الاقتصاد. الاقتصاد في اللغة مبدأ عام، والاقتصاد جوهر من جواهر البلاغة. اعتبر مثلا عدد الضمائر في

(١) راجع كتاب فغالي، المذكور اعلاه، ص٣ ـ ٨٠ حيث يبحث الفعل. وقد عزز ذلك بكثير من الشواهد المستمدة من لهجة لبنان الشمالية. ولكن ما يصدق على هذه اللهجة يصدق على غيرها من اللهجات العربية المحكية الى حد بعيد.

الفصحى (١٤) وعددها في العامية (٨) ولماذا؟ لان المثنى سقط والمثنى ظاهرة لغوية بدائية ترجع الى اول عهد الانسان بالعدد، وقد سقطت هذه الظاهرة من اكثر اللغات التي كان فيها مثنى لان ليس له ضرورة. كل ما زاد على واحد فهو جمع. واسقطوا جمع ضمير المؤنث. وهذا الاقتصاد في عدد الضمائر احدث اقتصاداً عظيماً في تصريف الفعل، فعوضاً عن ان نصرف الفعل مع ١٤ نصرفه مع ٨، وفي الامر عوضا عن ٦ نكتفي بثلاثة فنقول: قوم قومي، قومو

رابعا: الاهمال والاقتباس والتحديد في المعنى

ودليلنا الرابع على ان العامية لغة حية نامية متطورة حرصها على اهمال (أو أماتة) ما يجب ان يهمل، واقتباس ما يجب ان يقتبس، وتحديد ما يجب ان يحدد في معناه. فهي من هذه الناحية تساير الحياة. فانه في زمن كان الناس فيه يتلهون ببهلوانيات اللغة كان للاسد اسماء لا يحضرني عددها، وللناقة اسماء عديدة، وكان للسيف اسماء يصل عددها الى المئات، وكان للعسل ما يقرب من السبعين اسماً، وكان للداهية اسماء عديدة، وعديدة جداً حتى قيل: اسماء الدواهي من الدواهي! وبطرس كرامه نظم قصيدة (أمن خدها الوردي افتنك الخال....) يكاد عدد ابياتها يقرب من المئة وكل بيت ينتهي بلفظ الخال، وفي كل بيت للخال معنى يختلف عن معنى الخال قبله، وكلمة بسيطة مثل «الرز»، هذا الطعام الذي نراه كل يوم على مائدة من موائد الطعام، له في القاموس اشكال عديدة:

«الأرُزّ والآرُز والرُزّ والرُنْز (بفك الادغام) وربما كان الاصل الأروزُ بمعنى الانقباض».

اما في العامية فللاسد كلمة واحدة، وللسيف كلمة واحدة، وللعسل كلمة واحدة، وانتقت العامية اسهل الالفاظ للرز، والحمد لله على هذه النعم!

والعامية تقتبس حيث لا معدى عن الاقتباس وذلك لتحررها من القيود

ولانعتاقها من وطأة التقليد، ولافلاتها من تحكم المجامع اللغوية. فقد ارتأت ان تأخذ لفظ التلفون كما هو في باقي لغات العالم ولم تقبل بالمصطلح الذي وضعه مجمع فؤاد الاول للغة العربية. وقد اشتقت من الاسم فعلا، فيقولون «تلفن» وانا اوكد لك ان لامجامع للغة في الاقطار العربية، ولا قوانين حكومة، ولا سلطة اخرى على الارض تستطيع ان تقضي على هذه اللفظة او ان تحل محلها لفظة هاتف او لفظة اخرى. استعملنا في هذه الدراسة لفظة «نورم» بشكلها الغربي وفسرنا معناها العلمي المحدد[1] ولان نقلها الى العربية بلفظ واحد محدد المعنى والاستعمال أمر عسير، على الاقل بالنسبة لنا، فقد ارتأينا ان تصبح هذه اللفظة «نورم» من مفردات علم اللغة. ونعلم ان بعض الخاصة لن يرضى عنها. ونعلم ان فلانا من مصر سيقترح ترجمتها كذا، وآخر من دمشق سيقترح ترجمة اخرى، فتنشأ مشكلة سياسية اجتماعية ويخسر العلم، ولكن العامة، عندما ترتقي فكريا، وعندما تالفها وتعرف معناها فلن تتردد البتة في قبولها، وتصبح كلمة نورم، وجمعها نورمات، من صميم اللغة العربية، ولِمْ لا؟ هل هي اقبح من الفالوذج والاسطرلاب والدرهم؟

وتحرص العامية على تحديد المعنى. وهذا ما يشكو منه كل من زاول الكتابة العلمية او الاجتماعية. للكلمات العربية معان عديدة، ومعان غير واضحة. والعلم يتطلب التحديد. خذ مثلا لفظة «درس» في القاموس واعتبر معناها المحدد في العامية. «عرف» معناها عرف، ولكن افتحها في القاموس. راجع لفظة «حوب» في القاموس وقل لي ما معناها؟ قد تقول هذا غنى في اللغة، واقتصار العامية على معنى واحد فقر وانحطاط. أما نحن فنخالفك الرأي ونعتقد ان هذا من دلائل الحياة. الحياة لا تقبل الغموض والابهام، ولا تتحمل الاحاجي والبهلوانيات. الحياة تتطلب البساطة والوضوح والحياة تهمل ما قد مات.

---

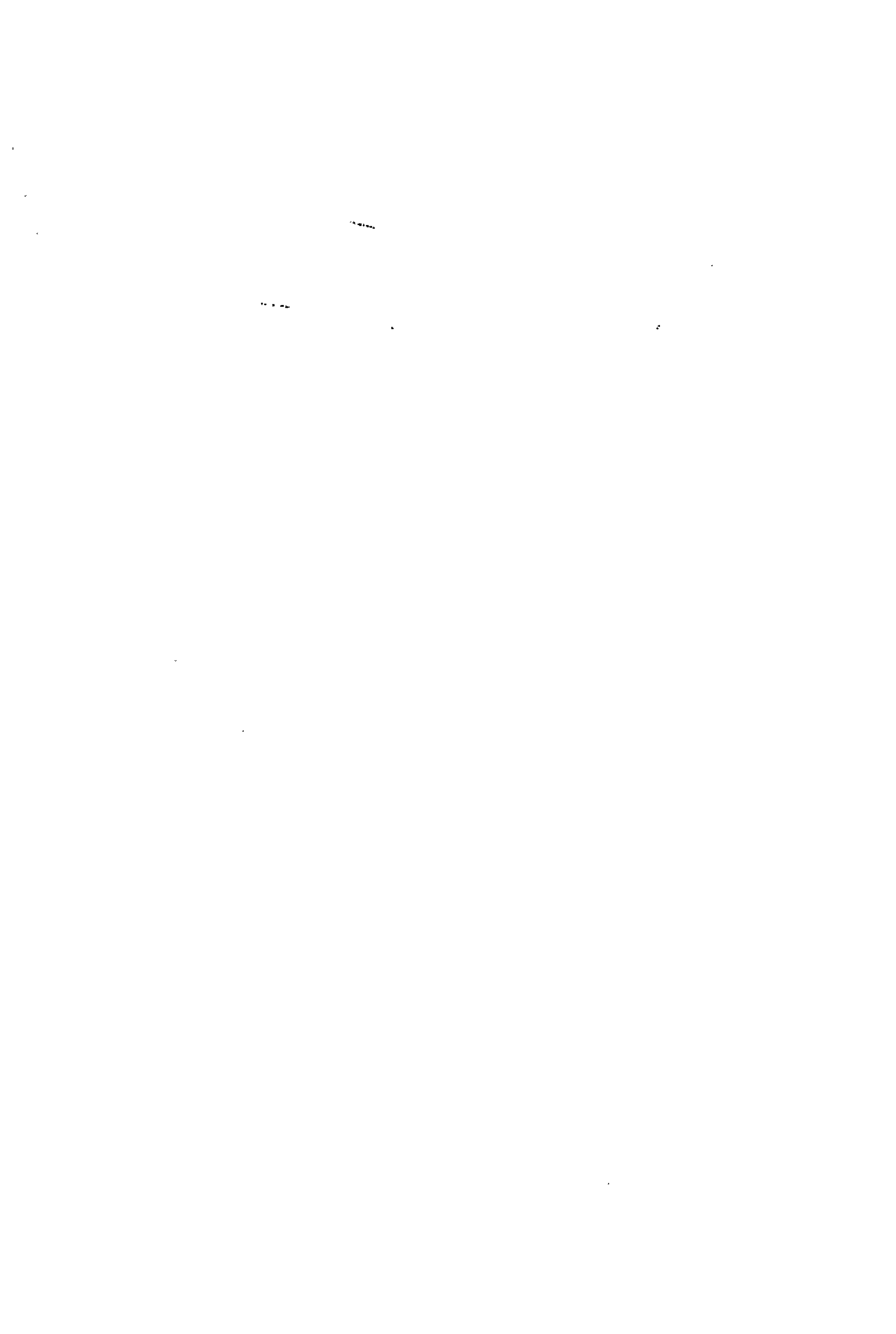
(١) راجع: ص ١٠٤.

خامسا: العنصر الانساني في العامية يضفي عليها مسحة من الحياة

وقد أشرنا الى هذا عندما قلنا ان اللغة اكثر من فونيمات، وأكثر من كلمات، واكثر من تركيب. للغة حياة، وهذه الحياة هو العنصر الانساني. ان الفصحى ليست لغة الكلام فلا يرجى منها ان تعبر عن الحياة بحلاوتها ومرارتها وقسوتها ولينها كما تستطيعه العامية. والدليل ظاهر، فانك لا تستطيع ان تقول بالفصحى ما تقول في العامية، واذا نقلته الى الفصحى اتى جافا قاسيا خلوا من العنصر الانساني اللصيق باللغة. تصور على المسرح فلاحا يتكلم الفصحى، او سكيرا يتكلم الفصحى او خادمة تخاطب سيدتها بالفصحى. او نجيب حنكش يقص اقاصيصه الزحلاوية البرازيلية بلغة الزمخشري، وسعيد فريحه في نكات يقصها بالفصحى، او المجلات المصرية تنقل كلام «ابن البلد» الى الفصحى!



القسم الثالث
اللهجة وأسلوب دراستها



فوائد دراسات اللهجات:

تعنى الأمم الراقية بدراسة اللهجات الإقليمية وتحرص على تسجيلها وضبط أحكامها وحفظ نماذج أدبية منها، كل ذلك حباً بالبحث والكشف. وأفضل الدرس ما ليس له غاية نفعية مادية بل ما كانت غايته ذاته. هذا النوع من الدرس الأكادمي لا يطلب جزاء ولا يسعى في مغنم، إنما يهدف إلى معرفة الحق وإلى اكتشاف المجهول. وهل أفضل من معرفة الحق وتكشف المجهول جزاء تجزى به العقول الشغوفة التواقة إلى المعرفة؟

غير أننا في هذا الشرق العربي نعيش فترة تتميز بطغيان المادة. قيمة الأشياء عندنا تقاس بقدر نفعها، وأهميتها بقدر تماسها بحياتنا المادية. فإننا لم نبلغ بعد، حتى في الجامعات، مواطن الفكر، مرتبة من التجرد تدفعنا لدرس الأشياء لذاتها. ولكن إن كان بيننا من يطلب أجراً أو يسأل عن غنم في درسه اللهجة فإني أرى في درس اللهجات الإقليمية، عدا عن لذة المعرفة للمعرفة ذاتها، ثلاث فوائد:

أولا: إذا كنا نسلم أن اللغة كائن حي يخضع لنواميس الحياة من نمو وهرم فليس أفضل من درس اللغة الحية (العامية) درساً موضوعيا لتفهم النواميس التي تعمل للحياة والنمو والموت. وذلك لأن العامية ـ عامية أي شعب ـ لغة حرة متطورة، والفصحى ـ فصحى أي شعب ـ لغة كتابية مقيدة بقواعد ثابتة ومسيَّج حولها بسياج شديد.

ثانيا: نحن من الذين يؤمنون أن في العاميات أدباً شعبياً غنياً ازدرته الاستقراطية الفكرية. ولكنه أدب منبثق عن روح الشعب وأحاسيسه. قد تكون الصياغة فيه بدائية لكن الصور والمعاني جميلة. هذا الأدب في صفوته غني بصوره، بنكاته، بدعابته، بأمثاله وأقاصيصه وخرافاته، وهو ذخيرة ضائعة ومن الحمق أن يظل جوهره في التراب.

يشكو الناس من جفاف في الأدب العربي، من ارستقراطية أبعدته عن عامة الشعب. وعندنا أن في الأدب العامي مادة للشعر والقصة والموسيقى. وإذا نحن حرصنا على درس هذا الأدب وجمعه وتنقيته فإننا قد نغني أدبنا.

ثالثاً: ونعتقد ايضاً ان في العامية مظاهر لغوية، صرفية ونحوية، ومعجمية، حرية بالدرس. وقد يكون في درسها إغناء للغتنا الفصيحة. إن نظرة القدامى والمحدثين إلى أن العامية لغة رديئة ركيكة، وإلى أنها تخلّف وانحطاط أفسدت على الناس تفكيرهم اللغوي. هل استوعب المعجم العربي جميع المفردات العربية؟ هل اعترف واضعو قواعد الصرف والنحو بصحة جميع المظاهر اللغوية؟ نحن نعتقد أن لا المعجم ولا كتب القواعد استوعبت جميع المفردات وكافة القواعد. وقد يكون في درسنا مفردات العامية ما يغني معجمنا - كما فعلنا عند دراستنا مفردات اللهجة اللبنانية - وفي درسنا قواعدها الصرفية والنحوية ما يشجعنا على التيسير والتبسيط.

الأسلوب

قبل البدء بدرس لهجة محكية ينبغي للباحث أن يكون موقفه من عمله موقف العالم المتجرد عن كل غرض أو هوى. ينبغي له أن يكون أسلوبه الاسلوب العلمي الدقيق، لأن نتائج كل نشاط عقلي رهن بمبلغ تملّك الموضوع مشاعر الباحث وعقله، وبمبلغ الأمانة والدقة في الأسلوب المتبع. نقول هذا لأننا نعلم أن بعض الناس ينظرون إلى اللهجات المحكية وعلى عيونهم نظارات ملونة. فهي ليست لغة، هي لهجة ركيكة تتميز بالرطانة والعجمة، سقيمة في تركيبها، فقيرة في معجمها، سخيفة في أدبها، سمجة في روحها. فإذا بدأ الباحث وهذه نظرته مال عن غير وعي إلى إثبات ما علق بذهنه عن اللهجة.

قلنا سابقاً إن درس اللغة في طريقه إلى كينونته علماً دقيقاً يخضع لقوانين العلم المطبق في حقول أخرى: مراقبة ووصف وتدوين وتجربة وافتراض وبرهنة ثم إثبات أن التجارب تؤيد صحة الافتراض فإعلان النتائج قوانين ونواميس عامة. وعلى دارس اللهجة أن يتقيد بالاسلوب، فلا معطيات مقررة ولا نتائج مسلم بها مسبقاً.

وقد يكون من المبتذل، ونحن بصدد الأسلوب، أن نذكر بأن علم الفونتيك (علم الصوت اللغوي) جزء أساسي من علم اللغة العام (General Linguistic) إذ أن على دارس اللهجة أن يدونها ويضبط أحكامها الصوتية والتركيبية، وقد يصعب عليه الأمر إن لم يكن ملماً ولو إلماماً بعلم الفونتيك.

على أذنه أن تكتسب مراناً في السمع لمعرفة طبيعة الصوت ومخرجه، وعلى لسانه أن يكتسب مراناً في إعادة الصوت لكي يدون ما يسمعه فونتيكياً برموز يكون قد اختارها لنفسه، أو برموز من وضع غيره.

وقد تعد مسألة اكتساب المران في السمع والنطق أمراً ثانوياً إذا اعتبرنا مسألة أخطر شأناً وهي تعليل كثير من المظاهر الصوتية والإعرابية، فإنها يمكن أن تكونَ عند التحليل الأخير إما تطوراً صوتياً او انحلالا صوتيا. كثير من قواعد الإعلال والإدغام وسقوط الإعراب يمكن أن يفسر فونتيكياً، فعلم الفونتيك إذا أمر لا مفر منه في كل دراسة لغوية.

ويحسن أيضاً، قبل الشروع بدرس لهجة ما، أن ننظر فيما سبق من دراسات حول الموضوع نفسه. فإن الفرنجة درسوا لهجات عربية عديدة وخير للمقدم على درس كهذا أن يلم بما كتب في الموضوع. فقد يكون عنده ما يضيفه أو يعدله، وقد لا يكون هناك متسع للزيادة. فإن الدكتور لور Lohr درس لهجة القدس [(١)] والدكتور ماتسون[(٢)] درس لهجة بيروت، ودرس المنسينيور فغالي لهجة قرية لبنانية، كفرعبيدا[(٣)]. فإذا تصدى أحدنا لدرس هذه اللهجات وجب عليه أن يقرأ هذه أولا كي لا يبذل جهداً في غير سبيله.

الخطوة الاولى

يترتب على ما ذكرناه آنفاً أن تكون الخطوة الأولى عند دراسة اللهجة إعتراف من قبل الباحث أنها لغة قائمة بذاتها لها نظامها الصوتي (Fonology) ونظامها المقطعي (Syllabic Structure) ولها صرفها (Morphology) ولها نحوها

---

(١) Max Lohr: Der Vügärarabische Dkaiekt Von Jerusalem. Giessen, 1905.

(٢) Emmanuel Mattson: Etude Phonetique Sur le Dialect Arabe Vulgaire De Beyrouth. Uqsal, 1910.

(٣) Michel T. Feghali: Le Parler De Kfar, Abida. Paris 1919.

(Syntax). ولها معجمها وبيانها وأدبها. وهم الباحث أن يدرس هذه اللغة درساً وصفياً تقريرياً (Descriptive Analysis) لا درساً فلسفياً، أي ذلك الدرس الذي من شأنه البحث عن العلة أحياناً وإذا أصررنا على معرفة العلة والنتائج نكون قد خرجنا عن نطاق البحث العلمي إلى دائرة الحدس والتخمين.

يشكو الناس، مدرسون ودارسون، من تعقيد النحو العربي، ومرد هذه الشكوى إلى أن نحو العربية نشأ وازدهر إبان بلوغ علم الكلام ذروته. فإن مفكري المسلمين جهدوا في أن يوفّقوا بين قوانين المنطق والفلسفة الإغريقية وبين العقائد الدينية. في ذاك الجو الفلسفي وضعت أحكام النحو وقوانين البلاغة والفصاحة. وأثر فلسفة العلة والمعلول ظاهر في علم النحو، زيد في جملة «زيد غني» مرفوعة بالابتداء وهو عامل معنوي، وزيد في جملة «كان زيد غنيا» مرفوعة على أنها اسم كان، وزيد في جملة «إن زيدا غني» منصوبة على أنها اسم إن، والماضي مبني لسبب، والمضارع معرب لسبب، ومساجد لا تنون ولا تجر بالكسر لسبب، وجمع المؤنث السالم ينصب بالكسرة لسبب، وقد كثرت العلل وتنوعت الأسباب. وقد عزوا، في كثير من الأحيان، العلة لأثر كلمة في كلمة. ولكن فرقاً من اللغويين لم يرضوا بهذا التعليل. وقد ألف ابن مضاء القرطبي كتاباً سماه «الرد على النحاة» حاول فيه هدم نظرية العامل. العامل في اللغة هو الانسان ذاته، وابن مضاء القرطبي يعد في طليعة علماء اللغة المحدثين، وله الفضل في وضع التوكيد على الانسان. درس اللغة درساً وصفياً تقريرياً يقينا من مزالق الحدس.

الخطوة الثانية

جمع مادة لغوية منتخبة من البقعة المنويّ درسها لغوياً. قد يكون دارس اللهجة من أبناء اللهجة فيعتمد في جمع مادته على ما عنده من ذخيرة لغوية. ولكن يخشى في هذه الحال أن تكون لغته قد تأثرت بثقافته وبالبيئة اللغوية

التي عايشها في المدينة، أو في الجامعة، أو في إقامته بعيداً عن بلدته. فإن هذا الاحتكاك بلهجات أخرى وهذا الابتعاد عن البلدة من شأنه أن يترك أثره في بعض العناصر اللغوية والمظاهر الصوتية. فإنني نشأت في قرية لبنانية درزية وكانت لهجتي الأولى لهجة درزية بحتة. أما الآن فإنني لا أعتبر خير مثال على صفاء اللهجة الدرزية، فإن ثقافتي اللغوية وسكناي في المدينة واغترابي إلى العراق وكوني مدرساً يحرص على صفاء لغته وحسن أسلوبه، جميع هذه، تجردني من الصفات اللغوية التي يجب أن يتصف بها الدرزي القح. وإني إذا أردت أن أدرس لهجة الدروز فعليّ أن أعتمد درزياً قروياً يمثل في لغته لهجة الدروز الصرفة.

جمع المادة اللغوية يتطلب (أ) مخبراً Informer
(ب) مادة
(جـ) أسلوباً

(أ) أما المخبر فيجب أن يكون خير مثال على صفاء اللهجة. وخير من يمثل هذه اللهجة أبناء القرية أنفسهم رجالا ونساء وولداناً. على دارس اللهجة أن يكسب ثقة المخبر. فإن وجود غريب في القرية يصحب آلة للتسجيل ويرغب في تسجيل كلامهم مثار للشك والتساؤل. عليه أن يوضح لهم الغاية من تسجيل كلامهم، وعليه أن يفهمهم أن التسجيل يجب أن يكون طبيعياً فلا تكلف ولا تعمد ولا حذلقة. ذلك لأن ابن القرية يشعر عند تكلمه مع ابن المدينة أن عليه أن يتكلم كلاماً فصيحاً مهذباً. وعلى المسجل أن يتنبه إلى هذا الميل إلى التصنع في الكلام. يجب أن يظل المخبر على سجيته وعليه أن ينسى أنه يتكلم في حضرة ابن المدينة أو أمام آلة تسجيل.

وتجدر بنا الإشارة إلى أن البقعة الجغرافية المنوي دراستها لغوياً قد تكون مأهولة بأكثر من أقلية دينية. ويلاحظ أن الفروقات الدينية يتبعها فروقات اجتماعية ولغوية. ويحسن بالمسجل أن ينتقي مخبراً من أوساط مختلفة إذ قد تكون في هذه الفروقات الاجتماعية اللغوية فوائد جمة.

(ب) أما المادة فقد تكون أحاديث وأقاصيص وأشعاراً عامية وخرافات ومعتقدات وعادات. وقد يترك المسجل الخيار للمخبر أو المخبرين، وقد يقترح عليهم الموضوع. ويحسن بالمسجل أن يجري امتحاناً قبل التسجيل ليرى أن الحديث طبيعي لا تكلف فيه ولا تصنع.

(جـ) أما الأسلوب فالتسجيل الآلي. وقدماً كان دارس اللغة يلجأ إلى التسجيل المبني على المشافهة. كان الدارس يصغي إلى الحديث ويدونه برموز فونتيكية - ولكن العلم قد أمدنا بالآلة المسجلة وكفانا النقص الذي يعتري التسجيل الفونتيكي بالمشافهة. فقد تخون الأذن صاحبها فيفوته أصوات، وقد تخونه أعضاء النطق فيعجز عن ترديد ما سمعه بدقة وضبط. أما الآلة الحديثة فإنها تعيد الصوت كما يتلفظ به المخبر وبكل دقة وضبط.

وليس لنا أن نتبسط في وصف الآلة المسجلة فإن أنواعها كثيرة، وأحجامها عديدة، والتنافس على صنعها شديد. فترى أنواعاً مختلفة بأشكال مختلفة وبأسعار متفاوتة. منها ما هو صغير الحجم رخيص الثمن (٥٠ - ١٥٠ جنيه مصري) خفيف الحمل، ومنها الكبير لدور الإذاعة وللمختبرات. ومن حسنات التسجيل على الشريط تمكين الدارس من سماع اللهجة مراراً وتكراراً، ومن حسناته أيضاً تسجيل أشرطة عديدة لأفراد عديدين يمثلون مختلف الطبقات الدينية والاجتماعية. فلا يبقى على دارس اللهجة إلا أن يضع شريطه في الآلة ويجلس للاصغاء وتدوين الملاحظات.

الخطوة الثالثة

دراسة اللهجة دراسة استقرائية (inductive) وصفية تقريرية (descriptive) بناء على ما يتجمع عند الدارس من مادة سجلها أو جمعها بطريقته الخاصة. ويحسن أن تكون دراسة اللهجة على مراتب:

(أ) مرتبة الصوت Phonology

(ب) مرتبة الصرف Etymology

(جـ) مرتبة التركيب أو النحو Syntax

ولا يقف حد المراتب عند هذا العدد. فلك أن تدرس اللهجة أيضاً على مرتبة المعجمية (Lexical level) ومرتبة التركيب المقطعي (Syllabic structure) ومرتبة الأسلوب ويدخل فيه نواحي البيان والبلاغة، ولك أن تقتصر على المراتب الأساسية الثلاث التي ذكرناها أعلاه.

(أ) مرتبة الصوت

لكل لغة أصواتها اللغوية التي يطلق عليها مصطلح علمي «فونيم» وجمعها فونيات تمييزا لها عن سائر الأصوات الطبيعية التي لا تدخل في نظام أصوات اللغة. ليس كل صوت هو صوت لغوي. ولا يتوهمن أن عدد فونيات اللغة يتفق عدداً مع حروف هجاء تلك اللغة. كلا. فإن فونيات اللغة أكثر عدداً من حروف هجائها. فالانكليز عندهم فونيم ث ويرمزون إليه بـ Th وعندهم فونيم ذ ولا رمز خاص به. ناهيك عن أن للفونيم الواحد ظلالا من التغييرات الطفيفة التي تطرأ عليه تبعاً لوقوع حرف ما قبله أو بعده. إذاً وضع رموز فونتيكية شاملة لنقل أصوات اللغة بدقة وضبط، أمر ضروري جداً.

وتجدر الإشارة إلى أن الحرف العربي الخالي من الحركات المصوتة لا يصلح رموزاً فونتيكية دقيقة لنقل أصوات لهجة عربية أو لغة غير عربية، وذلك لأن حركات اللغة العربية الأصيلة ثلاث: قصيرة وهي u.i.a طويلة وهي û.î.â ولكن اللهجات العربية المحكية واللغات الأجنبية غنية في نظامها الصوتي فهناك ô و o وê وe وهناك أنواع مختلفة للفظ a فإنه في سار غير في صار و u في سور غيرها في صور. فكيف نستطيع أن ننقل هذه الأصوات بالحروف العربية وبالحركات العربية؟ إن هذا غير ميسور. علينا حتما أن نلجأ إلى الحرف اللاتيني إلا إذا أردنا أن نضيف إلى الحروف العربية رموزاً جديدة

لفونيات لا وجود لها في الفصحى.

أما الأنظمة المتبعة في نقل الأصوات اللغوية من لغة إلى أخرى - ويسمونها Transliteration - فكثيرة ومتباينة. لكل أمة نظامها، أو بالأحرى لكل مؤسسة علمية نظامها الخاص. فالموسوعة الإسلامية لها نظامها، وقاموس أوكسفرد له نظامه، والجمعية الجغرافية الملكية لها نظامها، ومجلة Z.D.M.G. لها نظامها، وغيرها كثير. غير أن أفضل هذه الأنظمة جميعاً في نظرنا هو النظام المعدل[1] الذي أقرته جمعية الفونتيك الدولية: The International Phonetic Alphabet فإنه نظام شامل يستطيع المرء بواسطته أن ينقل كل صوت لغوي في العالم. ومن جملتها اللهجات العربية.

وقد لا يرضيك هذا النظام أو ذاك بل تفضل أن تضع نظامك الخاص. فإني لا أعرف دارساً للهجة لم يضع نظامه الخاص. ولا اعتراض على هذا، شريطة أن تضع ثبتا به في أول الدراسة، وشريطة أن تتبعه بدقة ونظام كي لا تشوش على القارئ. ومن قبيل الاقتراح فقط نثبت لك نظامنا الخاص في نقل اللهجات بالحرف اللاتيني:

---

(١) عدل سنة ١٩٥١.

رموز صوتية

اقتراح

الحروف الصامتة Consonants		الحروف الصامتة Consonants	
مقابلة العربي	الرمز	مقابلة بالعربي	الرمز
as it is in Arabicع	J or ğh or غ	(حرف همزة اليوناني)	i or c
ف	f	ب	b
ق	q	ت	t
ك	k	ث	o or Th
ل	l	ج	j
م	m	ج مصرية	g
ن	n	ح	h
هـ	h	خ	x or Kh
و	w	د	d
ي	y	ذ	d oe dh
ىْ =	zi	ر	r
وْ =	aw	ز	z
		س	S
		ش	š or sh

S ص

d ض

t ط

Z or z ظ

ç or c ع as it is in Arabic

الحروف المصوتة

Vowels

الطويلة		القصيرة	
في مثل باع ba'	â	في مثل دَرَسَ daras	a
في مثل ثِين tîn	î	في مثل لِبْس libs	i
في مثل رُوس rûs	û	في مثل ربع rub	u
في مثل فين fên		في مثل رايح râyeh	e
في مثل لون lôm	ô	في مثل كتابْكُن kitaäbkon	o

ملاحظة عن الحروف المصوّتة

من المعروف أن لهذه الحروف أكثر من لفظ واحد فإن a في كتاب، سامع، رايح ماضي تختلف. فانها في كتاب وسامع ممالة الى حرف e بينما في رايح وماضي ممالة إلى التفخيم. وعليه يجب على دارس اللهجة أن يضع لـ a الممالة رمزاً وللمفخمة رمزاً آخر هكذا:

ä ä (على سبيل الاقتراح)

وكذلك إذا لحظ دارس اللهجة أن هذه الرموز لا تكفي للدلالة على حركات اللهجة عليه أن يضيف إليها رموزاً أخرى أو يكتفي بهذه مع إضافة

فارق كما هو متبع في كتب المستشرقين الذين درسوا اللهجات.

إن دراسة اللهجة في هذه المرتبة، مرتبة الأصوات، تتناول أخطر ناحية في اللغة وأكثر الظواهر تعقيداً، وذلك لأن اللغة مجموعة أصوات تتعرض للتغيير الدائم. وأول خطوة في هذه المرتبة تقسيم الأصوات إلى قسمين طبيعيين: الحروف المصوتة والحروف الصامتة فيصف طبيعتها ومخارجها وما يطرأ عليها من تغييرات تبعاً لوقوعها في الكلمة وتبعاً لما يسبقها ولما يتلوها من حروف. ثم يدرس قضية النبرة (accent) التي لم يعرها لغويو العرب أقل انتباه فإنها على جانب من الأهمية وذلك لأثرها في طول الحركة وقصرها واختلاسها.

(ب) مرتبة الصرف

وتستعمل كلمة الصرف هنا بالمعنى الذي تتضمنه اللفظة الغربية Morphology أي العلم الذي يعنى بالشكل والبناء وبالتغيرات التي تطرأ على الكلمة المفردة من سابقة (Prefix) وواسطة (infix) ولاحقة (suffix) ومن تصريف مع الضمائر ومن إعلال وإدغام. هذه الظواهر تقع في حقل الشكل والهيأة (morphology). فإذا كان درس اللهجة في هذه المرتبة يتناول الكلمة المفردة وجب علينا إذن أن نعيد تقسيم الكلمة على أسس جديدة. ونحن نؤثر تقسيم الكلمة المفردة إلى ستة أبواب:

(١) الفعل

(٢) الإسم

(٣) الصفة

( ) الضمير

(٥) الظروف

(٦) الأدوات[١]

ولا بأس في إسقاط البابين الأخيرين، الظرف والأداة، في هذا الطور من الدراسة وإرجائها إلى مرتبة التركيب (النحو) وذلك لأن أكثر الظروف مبنية، وجميع الأدوات مبنية، ومعنى هذا أن شكلها لا يتغير فلا تدخل في باب الصرف (morphology) لأن علم الصرف يعنى بتغيير الشكل، وأشكال هذه لا تتغير، إنما عملها في غيرها، في التركيب.

ولا يسعنا التبسيط في درس هذه الأبواب لأننا في معرض درس الأسلوب. ولذلك نكتفي بمخطط لدرس الفعل يكون نمطاً يقاس عليه سائر الأبواب. فإني إذا أردت درس الفعل، في مرتبة الصرف[٢] فإني أدرس النواحي التالية:

(أ) أوزان الفعل

(ب) تصريف أوزان الفعل ماضياً ومضارعاً وأمراً.

(جـ) ما يشتق من الفعل: اسم الفاعل والمفعول واسم المكان والزمان والآلة والمصدر.

ونقتصر على ذكر أوزان الفعل في لهجة قريتنا (رأس المتن) وهي قرية لبنانية أكثرية ساكنيها من الدروز. فقد وجدنا من دراسة نصوص جمعناها، أن أوزان الفعل في لهجة هذه القرية اللبنانية هي:

١ ـ المجرد الثلاثي فعل: كتب شرب مشى نسى (مشي نسي) قام، عدّ رمى (رمَى) قرأ.

٢ ـ فعّل مثل علّم.

٣ ـ فاعل مثلساير جاهر.

---

(١) يدخل في هذا الباب جميع أنواع الحروف.

(٢) لأن درس الفعل يدخل أيضاً في مرتبة التركيب (النحو).

٤ ـ افعل لا وجود له بل يلاحظ أن كل افعل في الفصيح يصبح فَعَل في هذه اللهجة مثل تلف طعم تعب تقن (بدلا من أتلف وأطعم وأتعب وأتقن).

٥ ـ ت/ فعّل مثل تكلّم.

٦ ـ تْفَاعَل مثل تقاتل.

٧ ـ أنْفَعل يصبح نْفَعَل مثل نْكَسَر ونْجَرَح.

٨ ـ إفتعل يصبح فْتَعَل مثل خْتَمَل.

٩ ـ افعلّ فقط من الألوان ويصبح فْعَلّ مثل حمرّ.

١٠ ـ استفعل ويصبح سْتَفْعَل مثل سْتَخْدَم.

١١ ـ الأفعال الرباعية وهي كثيرة في لهجة لبنان وقد وجدنا أن المجردالثلاثي يصبح رباعياً بإضافة حرف إلى الثلاثي. بعض هذه الحروف التي تزاد: ى و ن ر م ب ش فيصبح لدينا أوزان مثل: فَيْعَل (أو فَعْيَل) فَواعل (أو فَعْوَل) فنفعل، فرعل، فبعل (أو فعبل مثل غلبط) شَفْعَل مثل شَقْلَب وشلهب. وهناك أوزان أخرى مثل فَعْلَن بإضافة النون في آخر الفعل مثل رَوحن، تْرَوْحَن عَشْوَن.

ثم إن هذه الأوزان يجب أن تدرس عندما تصرف مع الضمائر ماضياً ومضارعاً او امراً. ثم يجب النظر في المشتقات: اسم الفاعل والمفعول والمكان والزمان والآلة والمصدر من جميع هذه الاوزان. ويجب أن تكون هذه الدراسة مبنية على شواهد من المادة المسجلة أو المسموعة.

(جـ) مرتبة التركيب أو النحو

وجوهر اللغة التركيب، توضع المفردات وتهرم وتموت ويحل محلها مفردات جديدة ولكن العنصر الثابت في اللغة التركيب. تستطيع أن تتعلم مفردات لغة أجنبية كما أثبتها القاموس ولكنك إذا لم تتعلم قواعد التركيب فإنك لا

تستطيع أن تقول شيئاً في هذه اللغة سوى الإشارة إلى الأشياء مع ذكر الألفاظ الموضوعة لها، وذلك لأنك لا تعرف التركيب. إذاً التركيب جوهر اللغة. إنني إذا أردت التركيب (النحو) في لهجة ما فإنني أتبع المخطط التالي:

(أ) صيغ الفعل الزمنية: الماضي والحال والاستمرار والمستقبل.

ويدخل في هذا الباب استعمال اسم الفاعل للدلالة على الزمان مثل ماشي وراكب.

(ب) الجملة البسيطة والمركبة (الإخبارية والإنشائية).

(جـ) الاستفهام والنفي والتوكيد وأدواتها.

(د) المطابقة: الفعل لفاعله والصفة لموصوفها، والمفاضلة مثل غني، أغنى من...، أغنى الناس.

(هـ) الموصول.

(و) أفعال مساعدة.

(ز) الظرف.

(ح) أسماء العدد وأحكامه.

(طـ) الادوات ومعانيها واستعمالها.

وهذا مخطط عام لدراسة اللهجة. وقبل أن ننهي الكلام عن الأسلوب يذكر الباحث انه قد يتناول في درسه مرتبة أخرى من مراتب درس اللغة فقد ينظر في معجم اللهجة، وقد ينظر في أساليب البلاغة فيها، وقد يعنى بأدبها وبجمعه ونشره، وقد يكتفي بالناحية اللغوية الصرفة كما ذكرنا في المخطط. ولا يغربنّ عن البال أن كل ناحية من نواحي اللغة، لا بل كل ظاهرة بسيطة تتطلب تقليصاً وجهداً. فإننا نعرف علماء حصروا جهدهم في ناحية ضيقة كأن يدرس الواحد منهم الفعل فقط أو الإسم أو حرف الهمزة

وما يطرأ عليه من تقلبات. إذاً يحسن بدارس اللهجة أن يكبح جماح طموحه فيقصر درسه على ناحية محددة فيدرسها درساً مركزاً لا يبقى معه مجال لمستزيد.

جغرافية اللهجات

ومن الدراسات الطريفة المتعلقة بدراسة اللهجات وضع خرائط لغوية تبين الفروقات اللغوية التي تتميز بها بقعة عن أخرى. ففي لبنان مثلا طريقتان للتلفظ بحرف القاف. منهم من يلفظه على طريقة العربية الفصحى ق. ومنهم من يلفظه همزة فيقولون «إلْتَلّو» (أي قلت له) و«قلْتِلّو». وهناك ظاهرة أخرى في لبنان وهي أن بعض المسلمين في بعض المناطق يلفظون القاف كافاً حتى في قراءة العربية الفصحى! وبعض اللبنانيين، عند تعبيرهم عن صيغة الزمن الحالي عندما يكون الفعل أو الحدث مستمراً ويقابله (Present Continuous) يقولون «عمْ يأكل» ولكن بعضهم يقول «مِنْ يأكُل» أي هو في سياق عملية الأكل. فإذا أراد دارس اللهجة أن يبين للناس مواطن القاف الفصيحة ومواطن القاف المتغيرة إلى همزة، ومواطن «عَم يأكل» ومواطن «مِن يأكُل» فليس عليه إلا أن يأخذ خريطة للمنطقة الجغرافية ثم يبين على الخريطة المواقع التي فيها تبدو الظاهرة اللغوية التي هو بصددها. وقد يرسم خرائط عددها عدد ما يتخذه من مظاهر لغوية انتقاها لنفسه. فقد يأخذ تركيباً غريباً، أو لفظة غريبة، أو أصواتاً لغوية غريبة، ويتعقبها على الخريطة. ولن يتم له ذلك إلا بعد أن يكون قد زار المناطق هو بنفسه للتأكد من صحة الأمر. واننا لنجد في البلدان التي تعنى بدراسة لهجاتها العامية عدداً كبيراً من الخرائط اللغوية لكل ظاهرة لغوية فريدة. فإنك قد تجد في فرنسا مثلا خريطة لحرف الراء، حرف الراء حيث يلفظ كما يجب أن يلفظ حرف الراء، وحرف الراء المتغير إلى غ. قد يرغب أحدكم في دراسة حرف الجيم مثلا وكيف يتغير النطق به في مختلف البقاع العربية فتظهر الخريطة وإذا بمصر تقع في المنطقة حيث يتلَفَّظ به g والعراق حيث يتلفظ به dj ولبنان حيث يتلفظ به j.

اللهجة اللبنانية

كان لبنان نهاية مطاف أقليات عديدة، عرقية ولغوية ودينية، نزحت إليه هرباً من اضطهاد، فوجدت في وديانه وجباله حمى تستطيع فيه العيش بأمن وحرية. وقد حافظت هذه الأقليات على عاداتها وشعائرها وطقوسها ولهجاتها. ولذا كان لبنان معرض أزياء وعادات ولهجات.

وقد مرت هذه البقعة الجغرافية في أطوار تاريخية مختلفة، وعرف أهلها، إلى جانب اللغة الأصيلة، لغات أخرى عديدة، مصرية، حثية، بابلية، آشورية، فارسية إغريقية لاتينية، عربية، تركية، ولكن تعاقب هذه اللغات لم يكن لينازع اللغة الأصلية الآرامية (باستثناء العربية التي حلت محلها تدريجياً) التي لا تزال آثارها في أسماء القرى والمدن وفي اللهجة العربية المحكية في لبنان.

والآراميون مجموعة قبائل سامية توطنت سوريا والعراق وشمالي الجزيرة العربية، وجموعهم تشكل الموجة السامية الثالثة التي اجتاحت الهلال الخصيب، طلباً للماء والمرعى. وأول ما نلتقي بهم في التاريخ نجدهم بدواً رحلا في شمالي الجزيرة العربية. ثم إنهم حوالي ١٥٠٠ ق.م نزلوا شواطىء الفرات الأوسط ومن هناك اتجهوا غرباً نحو سوريا ولبنان. ولم يكونوا قبيلة واحدة بل مجموعة قبائل متحالفة، منها قبيلة الخبيري التي يرد ذكرها كثيراً في رسائل تل العمارنة، تلك الرسائل التي بعث بها أمراء سوريا ولبنان وفلسطين إلى

امنحوتب الثالث والرابع طلباً بالإمداد العسكري لصد هجمات البدو الزاحفة من الشرق والجنوب. ولكن مصر آنذاك كانت غارقة في نزاع ديني.

وقد أسس الآراميون دويلات أو إمارات عديدة شأنهم في ذلك شأن الموجات السامية الأخرى التي لم تستطع أن تتوحد، فكان العنصر الصحراوي القبلي عميق الأثر في الحياة السياسية. وتذكر لنا أسفار التوراة ـ والتوراة مصدر تاريخي قيم لدراسة الشرق الأدنى القديم ـ جملة من هذه الدويلات منها آرام نهرايم (أي العراق القديم) وآرام دمشق (أي سوريا وقد سميت بالعاصمة دمشق) وآرام صوبا في سوريا المتوسطة وآرام معكة في فلسطين. وليس لنا أن نساير هذه الدويلات في تاريخها السياسي، إنما يهمنا من أمرها ذكر حقيقتين: أولا إن الآراميين هم الذين نشروا الهجاء الذي وضعه الفينيقيون في جميع أنحاء الشرق الأدنى فإن لغتهم حوالي ٥٠٠ ق.م. أصبحت اللغة العامة الرسمية (Lingua Franca) في جميع أقطار الشرق الأدنى القديم. فقد حلت محل الكنعانية والعبرانية. وكانت لغة السيد المسيح على الأرض، الآرامية لا العبرية، كما يظهر من النتف القليلة التي نقلت عن لسان السيد المسيح. وقد جعلها الفرس اللغة الديبلوماسية. ثانياً عندما تنصرت هذه الشعوب الآرامية ـ ويدّعون أن تنصرهم حدث بعد موت المسيح مباشرة ـ غيرت اسمها من شعوب آرامية إلى «سورية» ومن لغة آرامية إلى لغة «سورية» وفي مصطلحنا اليوم سريان وسريانية. وذلك لأن هذا الإسم «آرامي» كان يذكرهم بوثنيتهم، وفي العبرية لفظة آرامي معناها وثني. وقد كان تنصرهم سبباً في وقوعهم تحت تأثير الهلّينية فكانت الإغريقية واللاتينية من اللغات التي تدرس في مدارسهم. وقد ترجموا إلى السريانية كثيراً من كتب الرياضيات والطب والفلسفة. وفي العصر العباسي لعبوا دوراً هاماً في الترجمة وفي نقل الفكر الإغريقي إلى اللغة العربية. غير أنهم في القرون الثلاثة أو الأربعة السابقة لظهور الإسلام انقسموا على ذواتهم حول آراء دينية لاهوتية تتعلق بطبيعة المسيح ومريم العذراء وطقوس الكنيسة فانقسموا إلى

كنيستين شرقية وغربية يعقوبية. وكان لهذا الانقسام الديني أثره السياسي واللغوي.

إن لغة لبنان قبل الفتح العربي كانت لهجة سريانية أي آرامية، وطابع هذه اللغة ظاهر في أسماء القرى والمدن وفي مفردات اللغة، وأهم من هذا كله في تركيب اللغة.

يظهر أثر الآرامية في لهجة لبنان في: **لفظ الحروف** فحرف الذال أصبح دالا فيقال كداب[1]، وكل ثاء أصبح تاء. وأدخلت حروف مصوتة جديدة e ê o ô القصيرتان والطويلتان.

وفي الضمائر فإن اللبناني عندما يقول (ena) فإنما هو في الواقع يلفظ (ena) السريانية، وعندما يقول كتابن كتابهن (أو كتابن) وهي (هم) فإنه يتلفظ بهذه الضمائر كما كانت في اللغة الأصلية، إذ يصعب على أي شعب يتخذ لغة الفاتح أن ينسى النماذج اللغوية الأصلية في لغته.

الفعل: ويظهر أثر الآرامية في الفعل، في كسر حرف المضارعة وفي صيغة الأمر وفي حركة الناقص في صيغة الماضي (رمى غفى).

المفردات: ويظهر أثر الآرامية في كثرة عدد المفردات الآرامية الباقية في اللغة المحكية فان عددها يصل إلى المئات وهو جزء من صميم الحياة اللبنانية القروية.

التركيب: أما أهم أثر للآرامية فهو في التركيب. وقد قلنا سابقاً إن التركيب جوهر اللغة. فإنك عندما تقرأ نصاً سريانياً وتترجمه ترجمة حرفية يتبادر حالا إلى ذهنك التركيب اللبناني العامي. ومن هذا التركيب ما يعرف بلغة أكلوني البراغيث فإن هذا التركيب سرياني فصيح وعليه نقول في لبنان أجوا الضيوف وطعموني الجيران عنب. وعندما يقول اللبناني شفتو لخيك

---

(١) حسب نطق الموارنة في شمالي لبنان.

وأكلتها للتفاحة فإنه يستعمل مفردات عربية في تركيب سرياني فصيح. وعندما يقول اللبناني بحب أشتغل وبريد آكل ولازم يجي فإن حذف «أنْ» التي تتوسط بين الفعلين متأثر بالتركيب السرياني.

ولكن، ذكرنا لكم سابقاً، أن علم اللغة الحديث يتغاضى عن معرفة الأسباب والعلل ويترك التاريخ جانباً. همُّ دارس اللغة وصفها وصفاً استقرائياً تقريرياً، ولذا سنختم أحاديثنا بنماذج من اللهجة اللبنانية نثراً وشعرا، تاركين لكم أمر دراستها على ضوء ما ذكرناه لكم عن أسلوب دراسة اللهجات. ولا بد من الملاحظة أن كتابة أية لهجة عربية بالحرف العربي الخالي من الحروف المصوتة لا تساعد القارئ على قراءتها قراءة صحيحة، وكان الأولى بنا أن نكتبها لكم بالحرف اللاتيني كما اقترحنا آنفاً على دارس اللهجة، ولكن خوفاً من مشاكل الطبع سنثبتها لكم بالحرف العربي.

من « رسائل شمونة »

(نشرت تباعاً في مجلة الدبور الأسبوعية سنة ١٩٢٨)

و« رسائل شمونة » قصة قروية تصور تطور الحياة الريفية والمدنية في لبنان. وهذه القصة مكتوبة باللغة العامية الجبلية، ولكن بما أن كتابة العامية بالحرف العربي أمر غير ميسور فإن القارىء يحتار في قراءتها، أهي عامية أم فصيحة؟ وقد اخترنا أن نكتبها كما هي مطبوعة في الكتاب على أن نعيد كتابتها بالحرف اللاتيني لتظهر حقيقة النطق الذي أراده المؤلف حنا الخوري الفغالي.

أما القصة فبسيطة جدا في حوادثها. تدور القصة حول فتاة يتيمة الأب اسمها شمونة. تترك شمونة القرية رغم إرادة أمها وعمها وتهبط إلى المدينة لتعمل خادمة في بيت من بيوت الأغنياء. وقد كان وقع الحياة المدنية على هذه الفتاة الأمية الساذجة الطاهرة شديدا فلم تقو على مقاومة التجارب العنيفة التي تعرضت لها. وبعد اختبارات مرة تعود شمونة إلى القرية نادرة نفسها للخدمة المجانية في المستشفى زهدا في الحياة وتكفيرا عن زلتها.

وأثناء إقامتها في بيروت كانت تبعث برسائل إلى أمها في القرية تصف فيها وصفاً واقعياً الانطباعات التي تركتها المدينة في نفسها. وكانت أمها ترد على هذه الرسائل وتكثر فيها النصح والإرشاد والتحذير من مغبة الاسترسال في حياة المدينة. فجاءت هذه الرسائل سجلا صادقاً لحياة القرويين في القرية ولحياتهم إذا هبطوا المدينة. وإليكم مثالين على هذه الرسائل: الرسالة الأولى

من شمونة إلى أمها تعلمها أنها أخيراً قررت « السترة » فارتضت أن تتزوج من لبناني عائد من أميركا الجنوبية اسمه « ميك » أما اسمه قبل هجرته فكان « مخّول » وميك كبير السن على شيء من الغنى وطيبة القلب. والرسالة الثانية من أم شمونة وفيها تعبر عن القلق الذي يساورها من جراء التأخر في إخبارها عن يوم العرس وتلح الأم على ابنتها أن تستخير الله ولا تتردد إذ ليس لها الآن إلا « السترة ».

« شمونة مخطوبة »

والدتي الحنونة

مثلما بتغيب شمس المسا بالضيعة هيك يا والدتي صرت أشعر أن أيام العزوبية عم تغيب شمسها.

من اليوم بلشت أشعر بدقة قلب ورجفة بالمفاصل، وإذا كان الاستعداد للزواج هيك قديش بدها تكون العيشة صعبة فيه.

المثل بقول: لما بتخلق البنت بتبكي عتبة البيت وبتحزن. وكمان بقول المثل: بتخلق البنت وبيخلق همها معا. الحق مع الأمثال وما في مثل كذب.

البنت بتتعب أهلها كف ما كانت. إن كانت حلوة بتتعبهم، وإن كانت شنيعة بتتعبهم. بالأول يكون همها تتزوج ولمن بتتزوج بتتجمع عليها كل الهموم.

رزق الله لمن كنا بنيات صغار ما نهتم بغير الأكل وشم الهوا. نهتم نعمل من الشراطيط لعب. نهتم بلعبة الحبل، نهتم بلعب اللقوط. خبزنا مخبوز وموينا بالكوز.

كبرنا ما شاء الله ولما كبرنا كبر الهم معنا. صحيح لعبنا وضحكنا وقضينا أيام حلوة لكن بلّشت الأيام السودا.

الحد كان يوم الخطبة اليوم الّي كل بنت بتنذر نذر حتى توصل لو، وأهلها ما يصدقوا إيمتا يجي ها اليوم. وأنت مقفورة مثل باقي الأمات من وقت ما كبرت وأنت ناطرة هل اليوم - ومن حسب أنك بدك تكوني أنت ببلاد وأنا ببلاد؟

كنت مفتكرة يوم خطبتي تعزمي القرايب وأهل الضيعة وتعزمي بونا الخوري حتى يصلي على الأواعي. وبيجي عمي بو سركيس يلبسني خاتم الخطبة بايدو. وبتعملي للمعازيم معكرون وتقدمي لهن تين وجوز. ويبتدي قول القرّادي والمعنّى. وبتمسكي ها الكباية وتشربي عرق كرمال المعزومين، وبترقصي وبتضحكي وبتقولي: «إن شا الله منكافيكم وقت فرحة ولادكن، والعزابي نفرح منهن، وإلى ما عندهن نقشع لن». تاني يوم بيجو بنيات الضيعة وبقلولك شو بدك يا أم شمونة، شو بيلزمك حتى نساعدك؟. هَي بتخيط محرمي وهيديك بتحيك خرج يما منديل. كلّو هذا راح كأن ما كان، وبعد جمعة بتصير شمونة كأنها ما كانت. والجازة جنازة. لكن ما لقيت ليلة الخطبة تقيلة لأني هيك كنت منتظرة. ضحكت وتصنعت وعملت حالي مبسوطة، لكن إن ضحكت على العالم بقدر أضحك على نفسي؟

مهما كبرت نفسي بظل أشعر إني زغيرة. مهما تحسنت وتبودرت بقدر شيل تجهود وجي؟ مهما قالوا الناس عني مليحة وآدمية يا هل ترى بقدر أنكر إني ما... بقدر رد حكي الناس عني؟ آه يا أمي كل شيء بيتعوض، المال بيتعوض، خسارة الأهل والرزق بتتعوض لكن الشرف ما بظن إن خسرو حدا بيقدر يعوضو، وخصوصا البنت ما بتقدر تمحي غلطتها.

كل ما شفت شب يما رجال كان لي معو سابق معرفة بحس كأن حربة عم تشك في خاصرتي. وصرت شوف إن كل الناس عيون عم تطلع فيّ. كأني بسمعهم عم يقولو: ولَك هَي ما كانت صانعة ببيت فلان؟ مش هي ال كانت تحاكي الدكنجي؟ هي صفتا هي نعتا لكن ال بسليني يا والدتي إن

المتلي كتار وكتار إلي وقعوا وقعة أكبر من وقعتي.

بكرا بيعرفوا بنيات الضيعة إني انخطبت. قلي لهن مثل ما بتقول كل أم عن خطيب بنتها: إن شاء الله كلكن بتحظو حظوة شمونة!

خبريهن إن ليلةالخطبة كانت ليلة حلوة كثير ولو ما يكون في مانع حداد من جهة الخطيب كان عزم كل أهل الضيعة. قولي هيك ـ هذا الدارج في بيروت، وسلي الحمى بقشر البطيخ ووعديهن إنك بتشيلي الفرق يوم العرس.

هذا إلي بخبرك بالاختصار. أما من خصوص ميك بتشوفيه مش مصدّق إن كنو خَطب يما لا. بقصّ وبجيب وببعزق مصريات من غير داعي. كانت سهرتو للساعة تماني صار يمغطها للساعة حدعش وليالي للساعة تنعش. بالحقيقة إنه بسلي. بيقعد يخبرك شو صار له بأميركا وشو شاف بالنهار ومن حاجاه ومن حاكى، وأم الياس بتحب الخبار. ومرة سمعت لك ياه عم يتساير مع أم الياس، قلها...

كنت مفتكرة أطلعلي شي مشوار شق عليك لكن بالحقيقة ما بقالي عين أطلع للضيعة. واصل لك شوية مصاري، مصروف المنا. وأنا لو تزوجت مش ممكن أتخلى عنك. بها الجمعة الخياطة بتخلص ولحد هلق ما قررنا وين بكون الإكليل. راح أعمل جهدي ت ابعت جيبك لعندي بعد ما نصَفّى على رأي.

ما في لزوم تخَبّري عني شي. صحتي مليحة وتمّنيني عنك بها البرد. لفلفي حالك مليح لأن شهر شباط شهر منحوس ولا تنسيش انو شهر عجائز كمان.

بنتك شمونة

« طارت شمونة »

ولدنا العزيز شمونة

رآنا العجب يا شمونة. صر لي زمان منتظرة مكتوب الإكليل ولحد هلق ما حظيت بمكتوب ولا عرفت شو جرى ولا شو صار.

كل يوم عمل بو سركيس بقلي اليوم منولف حالنا ت ننزل نهنيكي. شو القصة؟ شو الحكاية؟ العسى ما يكون حصل شي يشغل الفكر. بس ما يكونو المبغضين خوطر ولو فكره لعريسك أو تكوني أنت تغيرت فكارك.

بنصحك يا بنتي وباكل من بيتنا. لا تقلبي ولا صرارة. اتكلي على الله ولا بقا تغيري فكرك. مين بدك تنطري؟ شو فكرك راح يجي ابن السلطان عبد الحميد بعد ياخذك؟ هذا حظك وهذا نصيبك.

بعد ما تتجوزي بتشوفي، وتبقي قولي أمي هالخرفانة حكت. كتار قبلك علقوا علقتك وصابهم مثل ما صابك، بالاخر رجعوا ستروا حالهن وعاشو بخوف الله، ما حدا عقل وندم يا شمونة. أنا بهمني تتجوزي تتكفي لسانات العالم عنك. بتاخذي ميك، بتاخدي غيره، مش فارقة معي. الي بتتجوزيه الك انتي. لا راح أنا بتْجَوّزو ولا عمك سركيس. نحنا تجوزنا وشبعنا جـازي. حاج بقا يا بنتي! جرصونا أهل الضيعة. وانت مش قاعدة هون تتسمعي بدينتك. انطبلت الأرض بقصتك. كل شيء بيتعوض من عدا الشرف.

روحي تجوزي واعملي صالحك وتركي بيروت. الله يبعت لها زلزلة، ربت بقلبي علة وما لها دوا.

الله يوجه لك الخير يا بو سركيس قديش قلتلي حتى ودي وراك ورجعك وانا قلو: لا، لا، أنا بعرف شو مرباية وشو في عندي. تفسيرها مسختيني وجرصتيني. وأكثر من هيك ما راح باكتب لك وفهمك كفاية.

أمك الحنونة

أم شمونة

ما لحقت خلصت المكتوب أم شمونة حتى سمعت حس عجقة. افتكرت حدا جيي يسهر. لكن من بدو يجي بها الليل والثلج للطواقي؟ من الو خاصيته يقوم من حد المنقل؟ اخيرو قامت فتحت لقت شمونة ومعها شب ملفلفين بالعبي. شهقت أم شمونة وغميت. طبت شمونة ع صدر أمها تبوسا وتحاكيها وتقلا قومي شوفي بنتك، قومي تعرفي ع هالشب الظريف. بعد الجهد الجهيد وعيت الأم وما عادت عرفت كيف بدا تبوس بنتا.

ـ إياه احسن هذا يما ميكَ؟

ـ الله يرضى عليك يا بنتي ويوفقك. هذا مش الدكنجي الي كنت تكتبيلي عنو؟

ـ هذا هو بعينه وبعيناتو!

ـ وميك شو صفت حواله؟

ـ تركتو سهران هو وام الياس.

أغاني للضيعة

وهي مجموعة أشعار عامية نظمها الشاعر الشعبي إميل مبارك، ابن الضيعة اللبنانية. وقد أجاد الشاعر في وصف القرية اللبنانية كما كانت القرية أيام جدودنا. ولكن الحياة تسير بسرعة والمدنية الغربية تغزو القرية النائية الرابضة على القمة والمختبئة في بطن الوادي. والجيل المخضرم أمثال الشاعر إميل مبارك يشعر بحنين مشوب بأسى على تلك الحياة القروية الهانئة. وستبقى هذه الأشعار سجلا خالداً يقرؤه أبناء القرية بعد أجيال فيتعرفون إلى الحياة التي كان يحياها أجدادهم.

نتفة خوري

على البحر المزدوج ذي الدعامتين وعدد المقاطع في الدعامة الواحدة ٧

يـــا مـــا نظمتلـــك أشعـــار
وكـانـــت روحـــي تنـــاجيكـــي
يـــا ضيعـــا نحنـــا وزغـــار
يـــا مـــا لعبنـــا بـــواديكـــي
مـــا عـــاد الورد بنـــوار
ينفـــح عطـــر ويهديكـــي
ودهـــر الحذ عليـــك وجـــار
مـا عـاد يـذكـر مـاضيكـي

★ ★ ★

ولادك هجّـــوا مـــن القلي
مـا عـاد قـدروا حملـوا الديـن
تـــركـــوك ع هـــالتلى
بغصـــة قلـــب ودمعـــه عين
عصـــافيرك عـــم بتصلي
يفـــور البيـــدر بـــالغلي

وترجع بالجره تمللي
الحلوه من مزراب العين

* * *

عالضّيعا التركتها الناس
يا دني حاجي تجورى
ذوّقتيها مر الكاس
ويبّست ورد الجوري
مش باقي إلا شماس
بكنيسي، ونتفه خوري
والبعدو يسمع قداس
من الطاقة عصفور دوري
وينك يا بيتي المهجور
يا بيت جدي وبيت بيّي
ما في قرنة بالمعمور
متلك بتحن علّي
شبابيكك ربو المنتور
بطاقاتك غنّى العصفور
فيك عيوني شافو النور
وفيك يْغَمْضِ عيني

ضيعتنا

البحر المزدوج

ضيعتنا غامرها النور
مشرورة عا راس التل
مَدْخلها دَرَج زهور
بتشوف جَلّ بضهر الجل
بِخْواضا ورد ومنتور
بتضحكلك لِمن بتطلّ
وبيدَوْزن صوتو العصِفور
عا شلّال مَوْيِتْنا!

★ ★ ★

ضيعا فيها راعي فْقير
عبا ما عندو غيرا
بيتلفلف فيها بكير
وبْيِقعُد عا التشويرا
وبيصير ينقّر تِنْقِير
تا تسكر المِنْجَيْرا

وعصافير الوادي تطير
وعنو تردْد نغمتنا!

* * *

سنونو تْغط مقابيلي
لا تخاف مني ولا تِنْهَمّ!
ترفرف حولي تكاغيلي
تا تفهّمني إنّا أم....
وتصير تجيني بجيلي
ومن صوف الغنمات تلمّ
وتحسب حالا من العيلي
وْإِلْهَا حق بطاقتنا!

* * *

والقمر كان لو غايي
بْيِتْسَرّق وبْيِتْوقّا
من خلف الجبل جايي
بيتعربش دقّه ودقه!
شاف الشمس مُعَرّابي
نَقّزها وقلّا: بَقّا....
غطست بالبحر نكايي
وغابت عنا وتركتنا!

* * *

والصبح مثل العادي
غادي وِمْدَخْدَخ بكير

تـــايغِـــــل بعـــــبّ الوادي
ويفيِّـــــق العصـــــافير....
شـــاف المرجـــى سَجّـــادي
خضرا وعليهـــــا فـــــرافير
غَطّـــاهـــا بشـــال رمـــادِي
وخلا الدني تِخْـيِـــدنـــيا!

★ ★ ★

وبتشـــوف النـــدي بنيســـان
عـــا مَـــدّا المرج وطـــولـــو
بِتْحَسّــــب، فـــوق الريحان
الدني مشتـــايـــي لـــولـــو
وفـــرافير لـــوان لـــوان
مـــن زهـــره لـزهـــره، يقـولـــوا:
محلا العيشي بلبنــــــــان
وَشم الهوا بضيعتنــــــــا!

مشتاق ارجع للضيعة [1]

مشتاق ارجع للضيعا مشتـــــــاق كثير
إتعَمْشَق لي بشي تينـة وصيـــد عصـــافير!
عنت عا بـالي الضيعـا ويـــا مـــا مشتـــاق
عَبّي السلي بيكـوعـي وخَـــوّش جـــرجير!

★ ★ ★

مشتاق عـادَق المِجْـوِز إرعـــى العنـــزات
وْمَرْشِق توتات العَـوْدي وطَعْمـــي القَـــزّات!
مِشْتـاق إرجـع إتلَقَّـح تَحْـــتِ اللـــوزات!
وبِسْيـاج الضيعـا إصلي الدّبـــــقِ بكير!

★ ★ ★

مشتاق ارجع عالضيعـا شـــوف رْفـــاقـــي
واسرَح بِمـرُوج الخضرا وجـــو النـــاقـــي
واسمـع دجاجـة ستي عمبتقـــاقـــي ،

(١) وهي على بحرين، الدعامة الأولى على المزدوج، وعدد المقاطع فيه ٧، والدعامة الثانية على التساوي وعدد المقاطع فيه ٤.

ورافق جدّي وبقراتو وِآخْمِلُّو النير!

★ ★ ★

مشتاق ارجع اتفرج عا بيت بَيّي
وموقدة الكنت حدا مد جريي!
مشتاق شوف الصفصافي ونبع الميّي
حد البيت آللّي تَرَكْتو أنا وِزْغير!

★ ★ ★

مشتاق ارجع عالضيعا صار لي زمان
تارك مرتي وولادي وكل الاخوان
مشتاق ارجع عالصيري شوف الفَدّان
شوف الجحشي والنعجي والقراقير ! .....

قرّادي

يا ضيعتنا مشتاقين   ليك يا جارة صنين
حلوين ضياعه لبنان   لكن قدّك مش حلوين

★ ★ ★

نسيتي

(لأميل مبارك)

نسيتي يوم الكنا نروح   شوقلك وتقليلي
وهاك الشباك المفتوح   المنو كنت تسوميلي

★ ★ ★

نسيتي هاداك المشوار   دغوش نملّي جرتنا
ونسيتي بريق الفخار   الشانق حالو بخيمتنا
وقديش نخبر أخبار   وكانت حلوة عيشتنا
وع الموقد قدام النار   من البلوطة تشويلي

★ ★ ★

النـــدب

دموعكم لا تحجبـوهـا   من المحاجر أسكبوهـا
واتركوا الزهرة اللطيفـة   الباكية تـودّع أبـوهـا

★ ★ ★

غيبتـك غيبي طـويلـة   ضـاع حلم الصبر منـا
قلوبنـا صـارت ذليلـة   بس وجّك غـاب عنّـا
يـا دمـوع العين سيلي   غاب كوكب من وطنـا
وما بقا بـاليـد حيلـة   الموت ع المقتـل طعنّـا

★ ★ ★

يـا صحـابي وقفـوني   ونص سـاعـة أمهلـوني
لَيجوا كـلّ القـرايـب   والحبـاب يـودّعـوني

الفهرس